

بنو هلال

أصحاب التغريبة في التاريخ والأدب

أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري
الدكتور عبد الحليم عويس

النادي الأدبي - الرياض
١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

بنو هلال

أصحاب التغريبة في التاريخ والأدب

أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري
الدكتور عبد الحليم عويس

النادي الأدبي - الرياض
١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م



* الإصدارات السنوية

النادي الأدبي ـــ الرياض

ص.ب. ٨٥٣١
هاتف ٤٧٦٦٦٣٠
المملكة العربية السعودية



المقدمة

ماكان يحق لي أن أنفرد بكتابة هذه المقدمة عن زميلي الدكتور عبد الحليم عويس لولا دين له قائم واجب في ضمير الأمانة العلمية ينبغي أن أشيعه وأذيعه.

لقد كانت فكرة البحث عن بني هلال تاريخيا وأدبيا قائمة عندي منذ أن ألقيت محاضرة عنهم في الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون، وكنت محتفظاً بمقتطفات عنهم «فيش» من هنا وهناك مع قائمات بمصادر البحث مشار فيهم إلى الموضوع بالصفحة والجزء.

وعندما تبلورت فكرة مشاركتي للدكتور عويس في هذا البحث كان عليَّ - بعد توزيع البحث - أن أستوفي مايتعلق بأنسابهم ومأثورهم الأدبي الشعبي في جزيرة العرب، بيد أن نشاط الدكتور عويس صادف مني تكاسلاً مع تشتيت ذهني في مباحث أخرى فسلمته الضميمة التى لدي وهي مجرد أنقاض فتناولها حفظه الله بالإشباع والتنقيح والإضافة والطرح حتى خرج البحث بهذه الصورة: صورة يغلب فيها جانب من جوانب بني هلال، وهو تاريخهم في المغرب.

ولهذ التغليب سببان:

أولها: أن الدكتور عويس مختص في التاريخ بشتى فروعه ومؤهلاته الأكاديمية عن المغرب العربي.

وثانيها: أن واقع بني هلال التاريخي المعتبر هو تاريخهم بالمغرب مادام المراد الحديث عن بني هلال أصحاب التغربة.

وبقدر مانعتبر هذه الدراسة دراسة رائدة في تاريخ بني هلال وبقدر مابذلناه من جهد في مراجعة عشرات المصادر فإننا نعترف بنقاط تحتاج إلى تمحيص أو إشباع إما ابتداء وإما تكميلاً تركناها إيماناً منا بأن مالا يدرك كله لا يترك كله وطمعا منا في معاودة الموضوع بشكل أوعب.

فمن ذلك مشجر نسب بني هلال أصحاب التغربة يمكن أن يستخرج من عدة مجلدات من تاريخ ابن خلدون بعد تنقيح ومراجعة مستأنسين بكتب الأنساب والتاريخ المتأخرة.

ومن الممكن أن يضاف إلى هذا التاريخ معلومات شفهية يتمّ الاستحصال عليها من جولة في قبائل الصعيد وقبائل المغرب.

ومن ذلك أعلام بني هلال ذكرناهم أفراداً على عدد أصابع اليد ومن الممكن أن يكلفوا سفراً ضخما من مراجعة مستوعبة لكتب الأعلام لاسيما أعلام المغرب في القرن الخامس والسادس والسابع والثامن.

وعن مواطنهم قبل التغربة ممكن أن نستعين بجهود ذوي الاختصاص من أمثال مشايخنا حمد الجاسر وعبد الله بن خميس ومحمد العبودي وسعد الجنيدل فتستوعبها على شكل أدق.

وعن الأدب الشعبي في قصصهم الأسطوري وفي أدبهم التاريخي الذي أثبته ابن خلدون من الممكن أن ندرسه بشكل أفضل فنقارن مقارنة جادة بين القصص، ونتعمق التأريخ لبداية الأسطورة وندرس الفنون الملحونة في هذا الشعر كما ندرس اللحن في لغته كيف بدأ أو تدرج وندرس آثاره في اللهجات العربية المحلية.

كل هذا لو استوفيناه لكان مما يفرح به القلة من المختصين على أن ماذكرناه سيفيد فائدة كبيرة عامة القراء، وبحسبهم أن يجدوا دراسة رائدة في بعض الجوانب.

وثمة حقيقة يجب أن أشير إليها وهي تتعلق بالأدب الشعبي المنسوب لبني هلال في نجد وحروبهم في القرن السابع أو الثامن وقبورهم المأثورة وما قيل عن طولهم غير المعهود بناء على تباعد ما بين نصائب هذه القبور. فأنا أقطع وأجزم بأنه أدب وتاريخ منحول لا حقيقة له لأمرين:

أولهما: أن بني هلال رحلوا في القرن الرابع وهم عرب فصحاء ولم تكن اللغة العامية - إن وجدت - هي اللغة الشعبية.

ثانيهما: أنهم رحلوا وجابوا البلاد واستقروا في المغرب ولم يعودوا في القرن السابع أو الثامن إلى الجزيرة ليحاربوا في أشيقر أو في عالية نجد.

ومن واقع شعرهم الذي نقله ابن خلدون ومن واقع شعرهم الذي نقلته قصص التغربة لا ننكر أنهم تأثروا بألفاظ عامية لا تزال ماثلة في عامية أهل نجد إلى يومنا هذا مما يعني أنهم رحلوا وللعامية وجود في الجزيرة دون أن يكون لها هيمنة على الأدب.

كما لاننكر أن الأدب الشعبي تأثر بالشعر الشعبي الهلالي في لغته وأوزانه.

بدأ ذلك بأول شعر شعبي نجدي مأثور لعرار بن شهوان وشايع الأمسح وجعيثن اليزيدي.

والله المستعان.

وكتبه:

أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري

ــ عفا الله عنه ــ



توطئة

من بين أبرز الملاحم في الأدب العربى الإسلامى تبرز (تغريبة بني هلال) واحدة من الشوامخ الأدبية التى اختلفت حولها التفسيرات والرؤى الفنية.

وقد بدت (تغريبة بني هلال) وكأنها مجرد عمل أسطورى لاعلاقة له بالتاريخ، مع أن الجانب التاريخي ينساب في مراحل وجود أصحاب التغريبة على امتداد تاريخهم كله.

ومن هنا كان لابد من دراسةٍ تركز على الجانب التاريخي في حياة بني هلال قبل الاسلام وبعده، ثم تمد الطرف إلى تلك النقلات. والرحلات التى انتظمت تاريخهم كله، بحيث بدوا دائما أهل ظعن وارتحال وحروب ونزال.

وهذا لا يعنى إغفال الحياة الثقافية ومدى تفاعلها مع المكونات الثقافية التى التحم بها بنو هلال. كما لا يعنى إغفال الجانب الادبي والأسطورى في تغريبة بني هلال.

إن هذا البحث الوجيز قد حاول إلقاء الضوء على ذلك كله عبر مسيرة ليست سهلة، مشينا فيها بين أشواك علم الأنساب الذى يوصف عادة من قبل المؤرخين بأنه (أصعب من الصعب) وبين الاختلافات التاريخية، وما أكثرها، وبين الاختلافات التى دارت حول حقيقة الأثر الثقافي لبني هلال، وحقيقة البلاد التى امتدت فروعهم إليها خلال ترحالهم وانتجاعهم.

وإننا لنرجو من الله سبحانه وتعالى أن ينفع بهذا البحث، وأن نكون فيه قد وفقنا إلى سدّ ثغرة في تاريخنا، كانت تحتاج إلى إلقاء الأضواء التي تكشف جلاء صفحتها وأبعاد تأثيرها في حركة التاريخ وتيار الأدب.

المؤلفان

المحتويـــات



الفصل الأول

نسب بني هلال وأبرز أعلامهم



نسب بني هلال وأبرز أعلامهم

يشترك مع أصحاب التغربة في الانتساب إلى هلال عدة قبائل منها:

١ ــ بنو هلال بن عَفرْــ من قيس عيلان [1] عدنانيون .

٢ ــ بنو هلال بن عمر وبن جُشم بن عوف بن النخع [2] قحطانيون.

٣ ــ بنو هلال بن عامر بن ربيعة بن ثعلبة بن سعد بن ضبة [3] عدنانيون.

٤ ــ بنو هلال بن ربيعة بن زيد بن عامر بن سعد بن الخزرج بن تيم الله بن النمر بن قاسط [4] عدنانيون بن ربيعة بن نزار.

٥ ــ بنو هلال بن عمرو بن كعب بن الغطريف الأصغر ــ الحارث ــ ابن عبد الله بن الغطريف بن بكر بن يشكر بن مبشر [5] بن الصعب بن دهمان بن نصر بن زهران بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزر [6] قحطانيون.

٦ ــ بنو هلال بن جشم بن القين بن جسر [7] قضاعيون.

---

(١) الاشتقاق لابن دريد [٢٢٣ ــ ٣٢١هـ] ٢٧٣/٢

(٢) مختلف القبائل لابن حبيب [ت ــ ٢٤٥ هـ]ص ١٨ ونهاية الأرب للقلقشندى ص٤٤٣ ــ إلا أنه قال: بنو هلال بن جشم بن مالك بن بكر بن عوف بن النخع.

(٣) مختلف القبائل لابن حبيب ص ١٨

(٤) مختلف القبائل لابن حبيب ص ١٨.

(٥) مختلف القبائل لابن حبيب ص ١٨ و في الجمهرة هلال بن عمرو بن كعب بن الغطريف بن يشكر بن مبشر ص ٣٨٥

(٦) جمهرة الأنساب ص ٣٨٥، ص ٣٨٣.

(٧) مختلف القبائل لابن حبيب ص ١٨.

٧ ــ بنو هلال بن عبيد بن سعد بن عوف بن كعب بن مالك بن جلّان ابـن غنم بـن عـمـرو ــ وهـو غني ــ بـن أعصر بـن سـعد بن قيس عـيـلان بن مضر ــ عدنانيون ــ وغني أخو مالك الذى تنتسب إليه باهلة(١)

وهناك قبائل وبطون حديثة تنتسب إلى هلال وهى:

١ ــ هلال من عشائر شرق الأردن (٢)

٢ ــ هـلال حـددوا مساكنهم بالامتداد من حدود ربيعة التهم وأهل حلى ومحايل إلى قرب البرك على ساحل البحر (٣).

٣ ــ فرقة تـعـرف بـأبى هـلال مـن بـطـن يـعرف بأبى ليلى ينتسبون إلى العقيدات بدير الزور إحدى محافظات سوريا يبلغون ٢٥٠ بيتا (٤)

٤ ــ بـطـن يـعـرف بـ«بوهلال» من «الحمد لله» من عشيرة «القراغول» الملحقة بالصلته من شمرطوقة (٥)

وهى بلهجة العراق شـمـرطـوقـة وهم المتحضرون من شمر الساكنون في العراق بين محافظتى واسط و ديالى (٦).

---

(١) جمهرة الأنساب ص ٢٤٧.

(٢) معجم كحالة ١٢٢٠/٣ وينقل عن خمسة أعوام في شرق الأردن ص ٢٧٦ لبولس سلمان ــ حريصا: مطبعة القديس بولس ١٩٢٩م.

(٣) قلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة ص ٢١١ الرحلة الحجازية للبتنونى ص٥٢ ملوك العرب لأمين الريحاني ١٩٨/١ الرحلة اليمانية لشرف البركاني ص ١٤ ومعجم قبائل العرب لعمر رضا كحالة ١٢٢٠/٣.

(٤) معجم كحالة ١٠٢٠/٣و١٢٢٠ عن عشائر الشام لأحمد وصفى زكريا ٢٣٤/٢ ــ دمشق م داراليقظة العربية ١٣٦٦هـ والمعلومات الزراعية والإدارية عن سنجاق دير الزور(خ) ص ٧ [لعله لكحالة ومصدر أجنبي كما في كحالة ١٠٢٠/٣.

(٥) معجم كحالة ١٢٢٠/٣ وينقل عن عشائر العراق ص ٢٤٠ ولم يذكر الجزء.

(٦) البادية للراوي ٢٤٣

٥ ــ الهلالات من عبدة من شمر [١].

٦ ــ البوهلالة يلحقون بـ«البوصالح» من بنى مالك [٢] بن المنتفق و يتفرعون من «الحصونة» نسبة إلى مقاطعتهم و ينتسبون إلى «الغوالب» السادة[٣].

٧ ــ الهلالية من عبادة قيل إنهم قرشيون، وقيل من عقيل بن عامر بن صعصعة[٤].

٨ ــ الهلالية منهم من يعدهم من عبادة الآنفة الذكر ومنهم من يعدهم من عبودة وهى من ربيعة من عدنان والهلالية تتبع السناحر من عبودة[٥].

٩ ــ الهلال فرع من العريف من الصمدة من الظفير [٦].

١٠ ــ من عشائر الطفيلة بمنطقة الكرك [٧].

١١ ــ الهلالات من عشائر شرق الأردن [٨].

١٢ ــ الهلالات فخذ من أبى صليبى من الحديدين بسوريا [٩].

١٣ ــ الهلالات فرقة من العون بسوريا [١٠].

---

(١) عشائر العراق للعزاوي ٢٠٧/٣

(٢) عشائر العراق ٣١/٤

(٣) عشائر العراق للعزاوي ٣٢/٤ ــ٣٣

(٤) عشائر العراق للعزاوي ٥٣/٤.

(٥) عشائر العراق ١٠١/٤.

(٦) معجم كحالة ١٢٢١/٣ عن البادية ــ البادية لعبد الجبار الراوي ٢٤٢

(٧) معجم كحالة ١٢٢٢/٣ و ينقل عن تاريخ شرق الأردن وقبائلها ص٣٤٥ ل : اللفتنت كولونيل فردريك ج بيك ــ القدس ط م دار الأيتام الاسلامية الصناعية ١٩٣٤.

(٨) معجم كحالة ١٢٢٢/٣ عن خمسة أعوام لبولس ص ٢٦٥

(٩) معجم كحالة ١٢٢٢/٣ عن عشائر الشام لأحمد وصفي ١٧٩/٢ وانظر عن الحديديين كحالة ٢٥٢/١ ــ ٢٥٤.

(١٠) معجم كحالة ١٢٢٢/٣ عن عشائر الشام لأحمد وصفي ٢٠٩/٢ [لعلها من عشائر جبل الدروز انظر معجم كحالة ٨٦٢/٢].

١٤ ــ الهلالات فرقة من الفضل بسوريا [١].

١٥ ــ الهلالات فرقة من الكراشين إحدى عشائر معاذ الحجازية تناسلوا من رجل يقال له مسلم من قرية يفطة من أعمال نابلس بفلسطين[٢].

١٦ ــ الهلالات بطن ينتسب إلى المزاريع من تميم ويقيم في عرفة بنجد[٣] من بني عمرو بن تميم، وهم من بني هلال من بني مزروع بن حميد ابن حماد [٤] [وأصحاب غيرهم [٥]].

١٧ ــ ولد هلال من الوسانين من الحوازم من مروح من حرب [٦].

١٨ ــ الهلالات من عرب الأحواز قال جابر المانع من ربيعة ثم قال بعد أسطر من هلال بن عامر بن صعصعة [٧]

اشتقاق التسمية بهلال

قال الإمام ابن فارس «الهاء واللام أصل صحيح»

١- يدل على رفع صوت ومثل لذلك بقوله: والأصل قولهم: أهلّ بالحج رفع صوته بالتلبية واستهل الصبي صارخا عند ولادته ويقال: انهل المطر في شدة صوبه وصوته انهلالا.

---

(١) معجم كحالة ١٢٢٢/٣ عن عشائر الشام لأحمد وصفي ٥١/٢ وعن الفضل انظر معجم كحالة ٩٢١/٣ ــ ٩٢٢.

(٢) معجم كحالة ١٢٢٢/٣ عن تاريخ شرق الأردن ص ٣٦١ وانظر معجم كحالة ٩٧٩/٣.

(٣) معجم كحالة ١٢٢٢/٣ عن فؤاد حمزة قلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة ص ١٤١.

(٤) الحقيل ص ١٠١.

(٥) الحقيل ص ١٠٢.

(٦) نسب حرب لعاتق ١٠٠.

(٧) مسيرة إلى قبائل الأحواز ص ٢٩٣ وانظر ص ٩٥

٢ - ثم يتوسع فيه فيسمى الشئ الذي يصوت عنده ببعض ألفاظ الهاء واللام ومثل لذلك بقوله: وأماالذي يحمل على هذا للقرب والجوار فالهلال الذى في السماء سمي به لإهلال الناس عند نظرهم إليه مكبر ين وداعين.

٣ - ثم يشبه بهذا المسمى غيره فيسمى به، ومثل لذلك بقوله: أهلّ الهلال واستهل ثم قيل على معنى التشبيه تهلل السحاب ببرقه تلألأ، كأن البرق شبه بالهلال، ومما حمل على التشبيه أيضا بالهلال سنان له شعبتان والهلال الماء القليل في أسفل الرَّكى.(١)

والقاعدة أن الأسماء لا تعلل، ولكن هذا في استعمال الأحاد من الأسماء أما أول تسمية فلا بد أن لها أصلا من الاشتقاق والظاهر لنا أن التسمية بالهلال بالنسبة لأعلام البشر مأخوذة من الوسامة فالفتى الجميل الحسن الوجه يسمى هلالا(٢)

ولعل ذلك على سبيل التشبيه بالهلال في إضاءته واستدارته وهما صفتان من مقاييس الجمال وقد عرفنا من كلام ابن فارس اشتقاق هلال بمعنى البدر.

بنو هلال أصحاب التغربة وقبائلهم

ينتسب بنو هلال قبل التغربة إلى هلال بن عامر صعصعة بن معاو ية ابن بكر بن هوازان بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر(٣)

---

(١) معجم مقاييس اللغة ١١/٦ وانظر الاشتقاق لابن در يد ٦٠/١.

(٢) تاج العروس ١٧٠/٨.

(٣) جمهرة الأنساب لابن حزم ص ٢٧٣

وأبناء هلال في رأي أكثر المؤرخين خمسة:

١ - شعثة
٢ - ناشرة
٣ - نهيك
٤ - عبد مناف
٥ - عبد الله[1]

وإلى هذا ذهب ابن خلدون في كتابه (العبر) عند حديثه عن بني هلال..

بيد أن النويري يزيد على ذلك فيقول: إن هلالا أعقب من إحدى عشرة قبيلة، وهم أولاده لصلبه، وبالتالى ذكر ستة أولاد آخرين لهلال وهم:

٦- عائذة
٧ - رويبة
٨ - صخر
٩ - شعيبة
١٠ - حبرة
١١ - ربيعة[2]

أبناء شعثة

عبد الله [وهوأبو قبيلة][3] [استناداً لقول ابن حزم: فمن بنى شعثة بنو عبد الله ابن شعثة]

---

(١) المكان السابق
(٢) نهاية الأرب ٣٣٧/٢
(٣) جمهرة ابن حزم ص ٢٧٣

أبناء ناشرة :

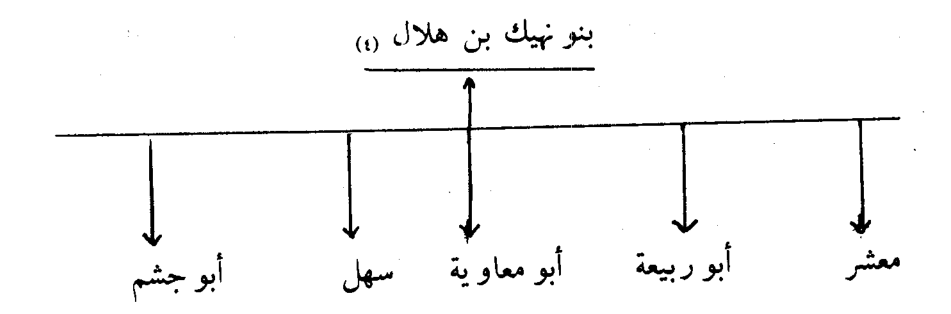
عمرو [أبو قبيلة](1) قال ابن حزم ومن بني ناشرة بنو عمرو بن ناشرة وظالم [أبو قبيلة] (2) لقول ابن حزم : ومن بني ناشرة بنو ظالم بن ناشرة

بنو نهيك :

منهم قبيصة بن المخارق بن عبد الله بن شداد بن معاوية بن أبي ربيعة ابن نهيك ابن هلال . له صحبة ورواية.

وابنه قطن بن قبيصة.

وأبو جامع بن المخارق... إلخ(3)



(1) جمهرة ابن حزم ص ٢٧٣
(2) المكان السابق
(3) جمهرة ابن حزم ص ٢٧٣
(4) النويري ٣/٣٣٧

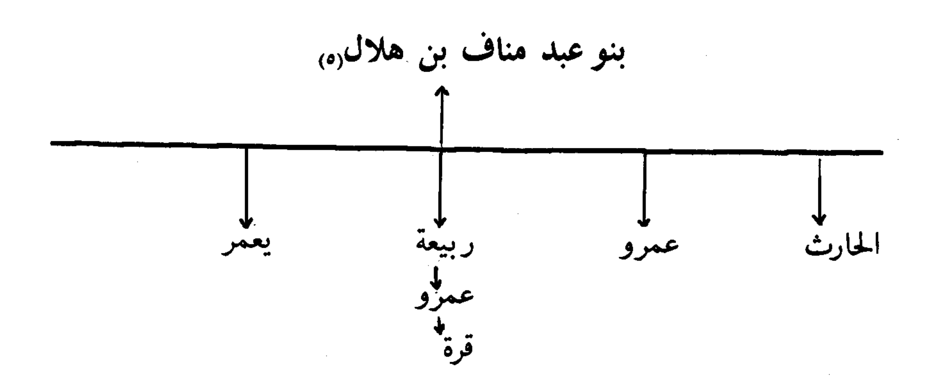
بنو عبد مناف:

من ولده مسعر بن كدام الفقيه(١)

وأم المؤمنين زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد الله ابن عبد مناف بن هلال(٢) والنزال بن سبرة له صحبة(٣).

وحميد بن ثور الأرقط الشاعر(٤)

[لعل العبارة: وهو غير الأرقط. انظر ملاحظة محشي الجمهرة]



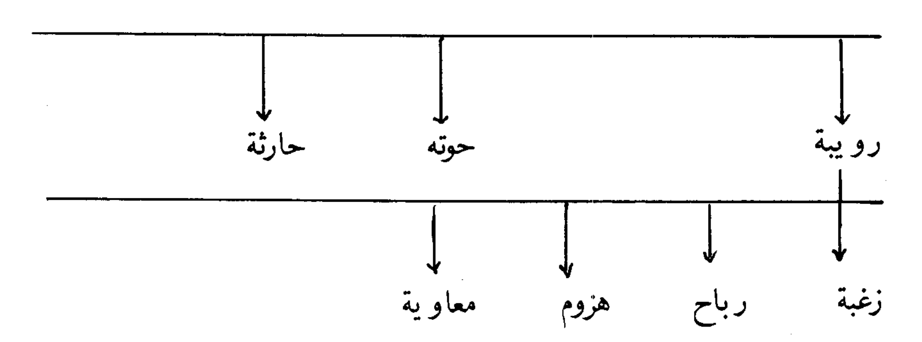
(١) جمهرة ابن حزم ص ٢٧٤
(٢) المكان السابق
(٣) المكان السابق
(٤) المكان السابق
(٥) النويري ٣/٣٣٨

بنو عبد الله بن هلال :

منهم أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث بن حزن بن بجير بن هزم بن رويبة بن عبد الله(١)

ومنهم لبابة الصغرى أم عبد الله بن العباس ولبابة الكبرى أم خالد بن الوليد

بنو عبد الله بن هلال(٢)



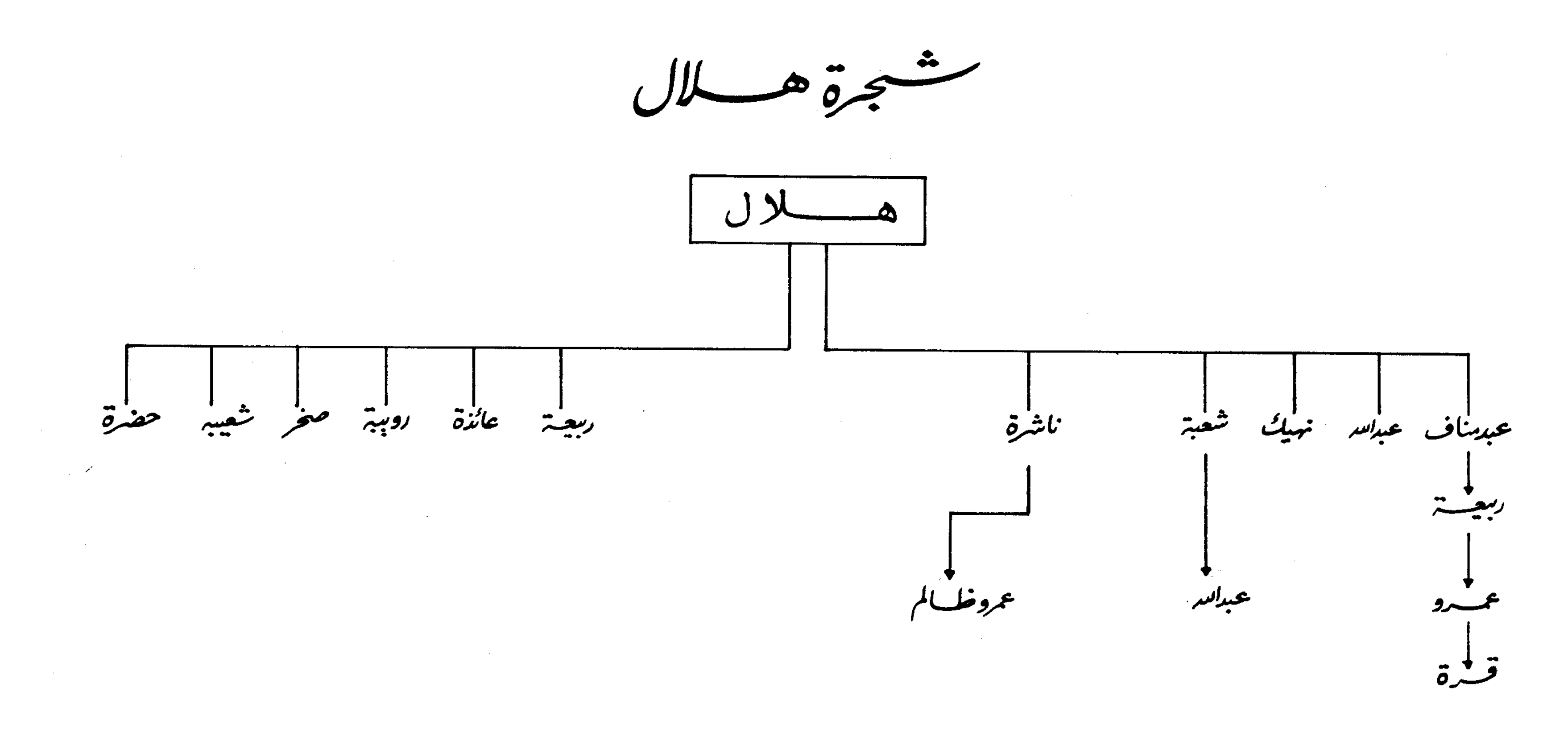
بنو رياح (الهلاليون)

من أعز قبائل هلال وأكثرهم جمعا عند دخولهم افريقيا وكانت رياستهم حينئذ لموسى بن يحيى الضنبرى من بنى ضنبر بن حواز بن عقيل ابن مرداس بن رياح وكان من رجالاتهم الفضل بن على - من بنى رياح، وهو مذكور في حروبهم مع صنهاجة. وقد تحدث عنهم ابن خلدون بما يلى:

(١) المكان السابق

(٢) عن النويري ٢/٣٣٧

شجرة هلال


هلال
عبدمناف
عبدالله
نهيك
شعبة
ناشرة
ربيعة
عائذة
رويبة
صخر
شعيبة
حضرة
ربيعة
عمرو
قرة
عبدالله
عمرو ظالم

كان هذا القبيل من أعز قبائل هلال وأكثرهم جمعا عند دخولهم افريقيا[1] وكانت رياستهم حينئذ لموسى بن يحيى الضنبرى [من بنى ضنبر بن حواز بن عقيل بن مرداس ابن رياح][2].

وكان من رجالاتهم لذلك العهد الفضل بن على مذكور في حروبهم مع صنهاجة بنو موسى وبنو جابرا بنى عامر بن يزيد بن مرداس بن رياح يقال إنهم من لطيف وبنو مشهور بن محمد بن عامر بن يزيد بن مرداس بن رياح يقال إنهم بنو مشهور بن هلال بن عامر من غير رياح[3].

ومنهم بطون داود بن مرداس وضنبر بن حواز ومسلم بن عقيل وعامر بن مرداس وموسى وجابر ابنى عامر وسودان ومشهور ومحمد بن عامر - المشاهرة رئاستهم من بنى مرداس كانت عند دخولهم لبنى ضنبر كما مر ثم صارت للزواودة أبناء داود وكان بنو عمر بن رياح يزعمون أن عمر كفل ابن أخيه داود ورباه.

وكان رئيسهم لعهد الموحدين مسعود البلط بن سلطان بن زمام بن رديني ابن داود لقب بذلك لشدته وصلابته.

وقد أنزل المنصور الموحدى مسعوداً وقومه بالمغرب ببلاد الهبط ما بين قصور كتامة المعروف بالقصر الكبير إلى ازغار البسيط الفيح هناك إلى ساحل البحر الأخضر واستقروا هنالك، وفر مسعود في لمة من قومه سنة ٥٩٠هـ ولحق بإفريقيا وكان عساكر بن سلطان أخو مسعود تخلف في مكانه بافريقية بهدف السلطان فاجتمع إليه بنو أخيه عساكر ولحقوا بطرابلس ونزلوا على زغب وذئاب يتقلبون بينهم ثم نزع إلى خدمته قراقش وحضر معه بقومه فتح طرابلس.

---

(١) ابن خلدون ٦/٣١،٣٢

(٢) المكان السابق

(٣) المكان السابق

ثم رجع مسعود إلى ابن غانية المبروتي ولم يزل في خلافته إلى أن هلك مسعود فخلفه في الزعامة ابن محمد وبقي عنده حتى غلب أبو محمد بن أخى حفص ابن(يحيى المبروتي) مع الموحدين سنة ٦١٨هـ فقتل عبد الله بن محمد ابن مسعود وابن عمه أبا الشيخ بن حركات بن عساكر.

ولم يرجع محمد رغم هذا حتى هلك المبروتي أبو محمد ولما رجع غلب على افريقية واجتمع إليه حلف الاثبج ظواعن الضحاك ولطيف واعتزوا به على قتال دريد وكرفه وصار يتغلب في رحلته إلى أن صارت زعامة البدو في ضواحي افريقية له ما بين قصطيلة والزاب والقيروان والمسيلة. وفي سنة ٦٣١هـ انقطع ملكهم واستقل بالأمر يحيى بن عبد الواحد وكان كارها لهؤلاء الزواودة جماعة محمد لمشايعتهم ابن غانية فأثار الفتنة بينهم وبين بنى سليم وانزل ابن سليم بالقيروان وبلاد قصطيلة.

ولما وفد وفد بني مرداس على بنى سليم يطلبون المكيل وينزلون عليهم فطمع بنو سليم في أنعامهم وقاتلوهم عليها وقتلوا رزق بن سلطان عم محمد ابن مسعود فكانت بينهم أيام وحروب حتى رحّلوهم جانب المشرق من إفريقية وأصاروهم إلى جانبي القرب وملك بنو سليم ضواحى الجانب الشرقى.

وامتاز الزواودة بملك ضواحى قسطنطينة وبجاية من التلول ومجالات الزاب وريغ وواركلا وما وراءها من القفار في بلاد القبلة. وهلك محمد بن مسعود فولى رياسته موسى بن محمد ابنه. وكان له صيت ومكان في قومه واعتزاز على الدولة.

ولما هلك يحيى بن عبد الواحد وبويع ابنه محمد المنتصر خرج عليه أخوه إبراهيم الذى لحق بالزواودة فبايعوه بجهات قسطنطينة ونهض إليه المنتصر سنة ٦٦٦هـ ففروا أمامه وافترق جميعهم، وانحاز إليه بنو عساكر بن سلطان ونبذوا العهد إلى إبراهيم بن يحيى ولحقوا بتلمسان.

ولما هلك موسى بن محمد ولي الرياسة ابنه شبل بن موسى فاستطال على الدولة وكثر عبثه فنبذ المنتصر عهده وحاربه بجموعة من الموحدين وبني سليم وأولاده عساكر أبناء عم شبل وعلى مقدمة الجيش أبو هلال عياد بن محمد الهنتاني أمير بجاية فتحيل على استقدام رؤساء بني هلال المعارضين وعلى رأسهم شبل ودريد ابن تازير شيخ أولاد ثابت من كرفة [من الأثباج] فلما وصلوا ضرب أعناقهم فافترقت ظواعنهم وفروا أمامه. واتبعهم إلى آخر الزاب وترك شبل ابنه سباعا طفلا صغيرا فكفله عمه مولاهم ابن موسى ولم تزل الرياسة بهم. ونزل سباع ابنه يحيى أيضا طفلا فكفله عمه طلحة بن يحيى. ولحق جلهم بملوك زناته المغرب. ولحق أولاد محمد بن مسعود بيعقوب بن عبد الحق بفاس.

ولحق أولاد سباع بن يحيى بن دريد بمحمد بن مسعود بيغمراسن بن زيان بتلمسان فكسوهم وحملوهم فارتا شوا وقاتلوا وزحفوا إلى موطنهم فتغلبوا على أطراف الزاب من واركلا وقصور ريغ وصيروها سهاما بينهم وانتزعوها للموحدين ثم تقدموا إلى بلاد الزاب وجمع لهم عاملها أبو سعيد عثمان بن محمد بن عثمان (ابن عتوا من رؤساء الموحدين) وكان منزله بخقرة فزحف إليهم من الزاب وأوقعوا به.

ومن زعمائهم يعقوب بن علي بن أحمد بن عمر بن محمد بن مسعود البلط. وذكر في مسالك الانصار أن يعقوب هذا شيخهم في زمانه وأن أباه عليا كان في غاية من الكرم بعث إليه سلطان افريقية ثلاثين حملا من البز الرفيع والتحف السنية فوهبها لثلاثة من المستعطين.(1)

(1) القلائد ص ١١٨

بنو الأثبج بن أبي ربيعة (الهلاليون)

قال ابن خلدون: إنهم أوفر عددا وأكثر بطونا، وكان التقدم لهم في جملتهم وذكر من فروعهم: الضحاك، وعياض، ومقدم، والعاصم، والطيف، ودريد، وكرفة، ومن دريد بن الأثبج: بطنان، وعنز، ويذكر أن موطنهم حيال جبل أوراس من شرقية(١)

وذكر ابن خلدون فتنة حصلت بينهم (بعد استقرارهم بإفريقية وغلبهم لصنهاجة) وهو أن حسن بن سرحان - من بني دريد من الأثبج - قتل شبانة ابن الأحيمر من بني كرفة بن الأثبج. فسكتت كرفة طاوية له الحقد. ثم إن الجازية بنت سرحان أخت حسن غاضبت زوجها ماضي بن مقرب بن قرة ولحقت بأخيها فمنعها منه.

فاجتمع بنو كرفة بن الأثبج، وبنو قرة - وساعدهم بنو عياض من الأثبج - على حرب حسن وقومه بني دريد. ولم تزل الفتنة إلى أن قتل حسن بن سرحان قتله أولاد شبانه الآنفة الذكر ثأرا لأبيهم ثم كانت الغلبة فيما بعد لقوم حسن وأتباعه.

واستمرت الفتنة بينهم إلى أن تفرق أمرهم وجاءت دولة الموحدين وهم على هذا الشتات والفتنة(١).

ويذكر ابن خلدون أن لبطون الأثبج ولاية صنهاجة. فلما ملك الموحدون افريقية نقلوا إلى المغرب العاصم ومقدما وقرة وتوابع لهم من جشم وأنزلوهم بها، وأرياح اعتزت بعدهم بإفريقية ورجع إليهم من المغرب شيخهم مسعود

(١) تاريخ ابن خلدون ٢٢/٦

زمام فاعتز الزواودة - وسيطروا على الأمراء، والدول وساء أثرهم فيها وغلبوا بقايا الأثابج.

فنزل الأثابج قرى الزاب وقعدوا عن الطعن واستوطنوا بالقرى والأطام ولما نبذ بنو أبي حفص العهد للزواودة اصطفوا بني كرفة من الأثبج فكانوا حربا لرياح شيعة السلطان ولذلك أقطعتهم الدولة جباية الجانب الشرقي من جبل أوراس وكثيرا من بلاد الزاب الشرقية حيث كانت محلاتهم الشتوية ولما اعتزت رياح على الدولة نزل بنو كرفة بجبل أوراس حيث اقطاعاتهم وسكنوه مللا متفرقة واتخذوه وطنا وربما يظعن بعضهم إلى تخوم الزاب[1]

ومن بني كرفة بن الأثبج :

١ — بنو محمد بن كرفة و يعرفون بالكلية.

٢- أولاد سهيب بن محمد بن كليب و يعرفون بالشبة.

٣- أولاد صبيح بن فاضل بن محمد بن كليب و يعرفون بالصحة.

٤- أولاد سرحان بن فاضل و يعرفون بالسرحانية.
وهؤلاء هم المودعات وهم موطنون بجبل أوراس مما يلي زاب تهودا

٥- أولاد نافت بن فاضل وهم أهل الرياسة في كرفة ولهم اقطاعات السلطان الآنفة الذكر.
وهم ثلاثة أفخاذ:
أ - أولاد مساعد
ب لأولاد ظافر
ج -أولاد قطيعة

(١) ابن خلدون ٦/٢٢/٢٣

والرئاسة أخص بأولاد مساعد في أولاد على بن جابر بن فتاح ابن مساعد بن ثابت(١)

* * *

ويقال إن من أشهر الإثبج قوة وهيبة بنى دريد، وكانت مواطنهم ما بين ولد العناب [عنابة] إلى قسطنطينة بالشرق الجزائرى ثم إلى طارف وما يحاذيها من القفر وكانوا بطونا كثيرة منهم :

(١) أولاد عطية بن دريد

(٢) أولاد سرو بن دريد

(٣) أولاد جابر الله من ولد عبد الله بن دريد

(٤) توبة من عبد الله ايضاً. وهو توبه بن عطاف بن جبر بن عطاف ابن جبر عطاف بن عبد الله(١)

ورياسة أولاد عطية في أولاد بنى مبارك بن حباس وكانت لهم تلة بن حلوف من أرض قسطنطينة ثم دثروا وتلاشوا وغلبتهم توبة على تلة بن حلوف زحفوا إليها من مواطنهم بطارق مصقلة بملوكهم وما إليها ثم عجزوا عن رحلة القفر وتركوا الابل واتخذوا الشاه والبقر، وصاروا في عداد القبائل الغارمة وربما طالبهم السلطان بالعسكرة معه فيعينون له نفراً منهم. ورياستهم في أولاد وشاح بن عطوة بن عطية بن كمون بن فرج بن توبة وفي أولاد مبارك بن عامر بن عطية بن عطوة وهم على ذلك لهذا العهد.

ويجاورهم أولاد مسرور وأولاد جار الله على سننهم في ذلك وأولاد وشاح منقسمة رئاستهم لهذا العهد بين شجم بن كثير بن جماعة بن وشاح وبين أحمد بن خليفة بن رشاش بن وشاح. وأولاد مبارك رئاستهم منقسمة في ماح ابن محمد بن منصور وأولاد جار الله فرياستهم في ولد عنان بن سلام منهم

---

(١) ابن خلدون ٢٣/٦

(١) ابن خلدون ٢٣/٦، ٢٤

وأما العاصم ومقدم والضحاك وعياض أولاد مشرف بن أثبج. ولطيف وهو ابن سرح بن شرف وكان لهم عدد وقوة بين الأثابج وكان العاصم ومقدم انحرفوا عن طاعة الموحدين إلى ابن غانية فأشخصهم يعقوب المنصور إلى المقرن وأنزل تامستا مع شجم وبقيت عياض والضحاك بمواطنهم بإفريقية ومنهم أولاد صخر وأولاد رحمة مجاورون لبنى يزيد بن زغبة في آخر وطن الأثابج من الهلاليين فعياض نزلوا بجبل القلعة قلعة بنى حماد وملكوا قبائله وغلبوهم على أمرهم وصاروا يتولون جبايتهم.

ولما غلبت عليهم الدولة بمظاهرة رياح صاروا إلى تلك المدافعة عن تلك الرعايا وجباياتهم للسلطان وسكنوا ذلك الجبل فطوله من الشرق إلى المغرب مابين ثنية عتبة والقصاب إلى وطن بنى يزيد بن زغبة فأولهم مما يلى غنية للمهاية ورياستهم في أولاد ديفل ومعهم بطن منهم يقال لهم الزير وبعدهم المرتفع والخراج من بطونهم

فاما المرتفع فثلاثة بطون.

١- أولاد تيار ورياستهم في أولاد محمد بن موسى.

٢- أولاد ضاش ورياستهم في بنى عبد السلام.

٣- أولاد عبدوس ورياستهم في بنى صالح.

ويرعى أولاد ضاش وأولاد تيار جميعا أولاد ضاش وأما الخراج فرياستهم لأولاد زائدة بنى عباس بن خصبى. وأما الضحاك فكانوا بطونا كثيرة وكانت رياستهم مفترقة بن أميرين منهم هما أبو عطية وكلب بن منيع وغلب كلب أبا عطية على رياسة قبيلتها لأول دولة الموحدين فارتحل فيا زعموا إلى المغرب وسكن صخر كلماسة وكانت له فيها آثار حتى قتله فيها الموحدون أو غربوه إلى الأندلس!!

هكذا ينقل أصحاب أخبارهم. وبقى منجعهم الزاب حتى غلب مسعود

ابن زمام والزواودة عليهم وأصاروهم في جملتهم ثم عجزوا عن الطعن ونزلوا إلى بلاد الزاب واتخذوا بها المدن، فهم على ذلك لهذا العهد.

وأما لطيف فهم بطون كثيرة:
منهم الينبي وهم أولاد كسلان بن خليفة بن لطيف يبرذوى مطرف وذووأبى الحليل. وذو وحلال بن معافى ومنهم اللقامنة أولاد لقمان بن خليفة بن لطيف.

ومنهم أولاد جرير بن علوان بن محمد بن لقمان ونزار بن معن بن عيا وإليه يرجع نسب بنى مرى والولاة بالزاب لهذا العهد. وكانت لهؤلاء كثرة ونجعة ثم عجزوا عن الطعن وعليهم على الضواحى الزواودة من بعدهم لما قل جمعهم وافترق ملكهم وصار إلى المغرب من صار منهم من جمهور الأثبج فاهتضموا وعليهم رياح والزواودة فنزلوا بلاد الزاب واتخذوا بها الأطام والمدن مثل الدرش وعرسدا ونهدوه ونقموه وبادس وهم لهذا العهد جملة الرعايا الغارمة لامير الزاب ولهم عجمة منذ رياستهم القديمة ولم يفارقوها وهم على ذلك العهد. وبينهم في قصورهم بالزاب فتحة متصلة بين المتجاورين منهم وحروب وفية وعامل الزاب يدرأ بعضا ببعض ويستوفى جبايتهم منهم جميعا.

ويلحق بهؤلاء الأثبج القمور وغلب على الظن أنهم من ولد عمر بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال لأن رباحا وزعنبة والأثبج بن أبى ربيعة ولا نجد بينهم انتماء بالجملة. ونجد بينهم وبين قرة وغيرهم من بطون هلال الانتماء فدل على أنهم لعمرو بن عبد مناف. أو يكونون من عمر بن روينة بن عبد الله بن هلال وكلهم معروف ذكره إلى الكلبي وهم بطنان:

قرة، وعبد الله وليس لهم رياسة على أحد من هلال ولا ناجعة تظعن لقلتهم وافتراق ملتهم، إنما هم ساكنون بالضواحى والجبال وفيهم الفرسان وأكثرهم رجالة. وموطنها بين جبل أوراس شرقا إلى جبل راشد وكان كل ذلك من ناحية المصنة والصحراء.

وأما التلول فهم مرفوعون عنها بقلتهم وحومهم من حامية الدول فتجدهم أقرب إلى موطن الفقر والجدب.

فأما بنو قرة منهم فبطن متسع إلا أنهم مفترقون في القبائل والمدن وحدانا وبنو عبد الله منهم على رياسة فيهم وهم: عبد الله بن على وبنوه محمد وماضى بطنان.

وولد محمد عنان وعزيز بطنان.

وولد عنان شكر وفارس .. بطنان من ولد شكر.

أولاد يحى بن سعيد بن بسيط بن شكر بطن أيضا.

فأما أولاد فارس وأولاد عزيز وأولاد ماضى فموطنهم بسفح جبل أوراس المطل على بسكرة قاعدة الزاب متصلين كذلك غربا إلى مواطن غمرة وهم في جوار رياح وتحت أيديهم.

وهم خول لأولاده وخصوصا من الزواودة المتولين موطنهم بالمجال. ولصاحب الزاب عليهم طاعة لقرب جواره وحاجاتهم إلى سلطانه فيصرفهم لذلك في حاجته منذ عنت من أخبار العير ومفارقة مدن الزاب مع رحله وغير ذلك.

وأما أولاد شكر وغيرهم أكبر رياسة فيهم فنزلوا جبل راشد وكانوا فريقين فنزلوا واحتربوا أولاد ذكرى ودفعوهم عن جبل راشد فصاروا إلى جبل كسال محاذية من ناحية الغرب وأوطنوه. واتصلت فتنهم معهم على طول الأيام وافتتحهم رجال زغبه بأقسام المواطن، فصار أولاد يحيى أهل جبل راشد في إيالة سوبر بن زغبة وأحلافا لهم وأولاد ذكرى أهل جبل كسال في إيالة بنى عامر وأحلافالهم.

من أعلام بنى هلال.

ميمونة بنت الحارث بن حزن بن بجير بن الهزم بن رويبة بن عبد الله بن هلال أم المؤمنين(١).

جنادة بن كامل مقدم بني هلال من بني نجية بن على بن فادع من بني رياح.(٢)

زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف أم المساكين أم المؤمنين(٣).

وقال ابن حزم: عمرو بن عبد الله بن مناد .

والنزال بن سبرة له صحبة(٤).

وحميد بن نور الأرقط الشاعر.(٥)

ولبابة الصغرى أم عبد الله بن العباس من بني عبد الله.

ولبابة الكبرى أم خالد بن الوليد [أبو ميمونه].

وصفية بنت حزن أخت الحارث عمة ميمونه أم أبي سفيان بن حرب.

وعبد الله بن يزيد بن عبد الله الأصرم بن شعبة بن الهزم بن رويبة بن عبد الله بن هلال وابنه عاصم بن عبد الله والى خراسان الشمرى بن السائب بن شراحيل بن الأفقم بن محجز بن أبي عمرو بن شعيثة ابن الهزم

---

(١) النويري ٣/٣٣٧.
(٢) النويري٣/٣٣٧.
(٣) النويري ٣/٣٣٨.
(٤) ابن حزم ص ٢٧٤.
(٥) ابن حزم ص ٢٧٤.

وعداده في الانصار وعمته أم جميل بنت الأفقم التى اتهم بها المغيرة بن شعبة وكان زوجها الحجاج بن عتيك الثقفى (١).

أبوزيد الهلالى:

قال الزبيدي: ومنهم أبوزيد الهلالى المشهور في الشجاعة والكرم(٢).

قبيصة بن المخارق بن عبد الله بن شداد بن معاوية بن أبى ربيعة بن نهيك ابن هلال بن عامر. له صحبة ورواية وابنه قطن بن قبيصة.

وأبو جامع بن المخارق بن عبد الله بن شدّاد (٣).

مسعر بن كدام الفقيه من ولد عبد مناف(٤).

وغيرهم كثيرون ،

---

(١) الجمهرة لابن حزم ٢٧٤.
(٢) تاج العروس ٨/ ١٧٠
(٣) ابن حزم ٢٧٣.
(٤) ابن حزم ٢٧٤.



الفصل الثاني

بنو هلال قبل التغربة ومواطنهم



الهلاليون قبل التغربة ومواطنهم

في الجاهلية

النزوح والانتجاع والارتحال من طبيعة البيئة التى تكيفت معها النفسيةالعربية، وأصبحت ـ بتأثيرها ـ أميل إلى «الاغتراب» تحبه وتعشقه، وإن كانت ـ دائما ـ تحن إلى مرفئها الأصيل.

والبحث عن أسباب هذا الاغتراب كثيرة... لكنها في معظمها أسباب اضطرارية، فرضتها البيئية القاسية، والطبيعة القبلية المقاتلة، وغير ذلك من الأسباب التى أحسن أبو الفرج الأصفهانى حصرها في كتابه الموسوم باسم «أدب الغرباء»... عندما قال:

«فإن أصعب ماناب به الزمان، ولقى في عمره الإنسان عوارض الهم ونوازل الغم نعوذ بالله منها، وحدوثهما يكون بأسباب أتمها حالا في ا لسورة (الشدة) وأعلاها درجة في القوة:

تغيّر الحال من سعة إلى ضيق، ومن زيادة إلى نقصان، وعلو إلى انحطاط، والله تعالى أخبرنا أنَّ ذلك إحدى العقوبات التى تهدّد بها وخوف منها، فقال: ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأحوال والأنفس والثمرات (البقرة ١٥٥).

وربما قاد الفراغ إلى التشاغل بغير مهمّ، ودعا التفرد إلى مقاربةالنغص،

وحملت الحاجة على تورد الحتوف، وسهلت المحن ركوب كل مخوف [1]....

وكان بنو هلال العرب.. من هذه القبائل التى خضعت لهذه الظروف البيئية العربية.. فكانت حياتها انتجاعا وارتحالا...

ويحدثنا التاريخ عن هجرات أربع كبيرة لسكان هذه الجزيرة العربية: الأولى (بابليَّة) سادت «أكادو سومر وعيلام» بدمائها وفرضت عليها لغتها.. والثانية (كنعانية) على خلاف بين العلماء في هذه النسبة إلى كنعان .. وقد بلغت أرض مصر، والثالثة (آرامية) سيطرت على بلاد الشام وجعلت دمشق عاصمة ملكها، والرابعة هى (الإسلامية) التى سارت على طول الحافة الشمالية للصحراء وانتشرت في بلاد الشام ومصر وشمال إفريقية[2]

لكن الجدير بالذكر ـ تعليقا على هذه الهجرات الأربع ـ أن الهجرة الأخيرة التى تتعلق بالفتوحات الإسلامية.. لم تكن هجرةً بالمعنى المعروف للهجرة... بل كانت« فتوحات» من مركز القوة لا من مركز الضعف، وكان المسلمون فيها حملة مبادئ.. سواء كانوا عرباً أو غير عرب.. ولم يكونوا أبدا باحثين عن متاع، أو تنتابهم محن ومصاعب.

* * *

وقد خضع بنو هلال للقوانين والأعراف العربية بكل خصائصها...

فإلى جانب خاصة الارتحال ـ خضعوا ـ أيضا ـ لأسلوب الحياة العربية في خلافاتها واتجاهاتها القبلية.. مابين قيسية ويمنية، أو عدنانية وقحطانية...

ولا يشك المؤرخ في أنها كانت ذات دور مندمج في تلك الأدوار المعروفة في الحياة العربية «بأيام العرب» وإن كانت سجلات الوقائع التاريخية لم

---

(١) أدب الغرباء تحقيق صلاح المنجد دار الكتاب الجديد لبنان بيروت ص٢١

(٢) د/ عبد الحميد يونس الهلالية ٦٠ / ٦١.

تورد لنا شيئا عن هذه الآثار.. فهم كسائر العدنانية يكرهون القحطانية، والعداوة بينهم وبين الأزد مشهورة لمجاورتهم إياهم... من ذلك ماذكره صاحب الأغانى وهو يتحدث عن (حاجز الأذى) أحد الشعراء الصعاليك اليمانية في العصر الجاهلى.. فقال «اجتاز قوم حجاج من الأزد بني هلال بن عامر بن صعصعة، فعرفهم ضمرة بن ماعز سيد بني هلال، فقتل فيهم وسبى منهم - ثم انضوى بنو هلال - مع ذلك - في الحلف القيسىّ، وشاركوا فيما أسميناه بالأيام الخارجية، فنحن نراهم مع بطون أخرى لهوازن، وعلى رأسهم ربيعة بن أبى ظبيان الهلالى سيد بن عامر بن صعصعة جميعا، على بني الليث من بطون كنانة جميعاً.. وأخذ أنعامهم.

...كما انحازوا إلى أبناء عمومتهم عامر بن صعصصة في قتال بنى نهشل من تميم يوم الوندة أو الوندات، وقتل منهم مايقرب من ثمانين رجلاً[1].

ولعل هذا هو أبرز ماعرف عن بني هلال ومشاركتهم في الحياة القبلية بأيامها الداخلية والخارجية... وذلك بالطبع قبل العصر الاسلامي..

في العصر الإسلامى قبل التغربة

غنىّ عن البيان أن تأثير الإسلام على العصبية القبلية كان قوياً... فهذا الدين الذى يسوى بين كل الناس، و يذيب الفروق اللونية والعرقية والبيئية، و يقول:

«يـأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير»[2]... هذا الدين

(١) المرجع السابق ٣٤

(٢) الحجرات : ١٣

أقام البناء الاجتماعي والحياة الإنسانية على دعائم غير التفاضل القبلى والصراع العرقى المدمر...

ومما لاشك فيه أن بنى هلال - كسائر القبائل العربية - تأثرت بهذا التيار الفكرى الجديد، وبهذه الروح الجديدة التى سادت الجزيرة العربية ... وقد وفد هلال بن عامر - ومعه قومه - على النبى صلى الله عليه وسلم فأكرم وفادتهم، وأسكن هلالاً وادى العباس. وكان هلال شجاع كريماً ذا أريحية عربية مشهورة بين القبائل(١).

و يقال إنه عندما بعث الرسول عمر بن الخطاب في ثلاثين رجلا إلى عجز هوازن كان دليله من بنى هلال... مع أن هلالاً من بطون هوازن، مما يؤكد ضعف الروح القبلية في بنى هلال في بداية العصر الإسلامى.

وقد تداعت بقايا الروح القبلية - خلال تلك الفترة - في بنى هلال عندما انهزمت قبيلة هوازن - وهم مجرد بطن منها - في موقعة «حنين» المعروفة، بل كان من بين المحاربين فيها إلى صف هوازن بعض بنى هلال الذى كانت العصبية لازالت تسيطر عليهم ، وإن كانوا قلة قليلة جداً.

فبهزيمة الأصل وهو هوازن، لم يعد لبنى هلال «البطن» مطمح في الاعتماد على نعرة عنصرية، فانحلت العقدة منهم خلال هذه الفترة الرشيدة على أية حال. ونحن نستطيع آن نقول ونحن مطمئنون: إن دور بنى هلال بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، أى في حروب الردة، ثم في أيام الفتوحات الكبرى، وفي أيام الفتن بين على ومعاوية.. إنما كان دوراً من جملة الأدوار التى انتظمت سائر القبائل.. فقد وقفوا في الردة موقف التربص بالنتائج، فلما انتصر الإسلام اندمجوا مع المجاهدين المسلمين.. ولما جاءت الفتوحات في فارس والروم انخرطوا في سلكهم.. وضربوا بسهم كما ضربت بقية البطون العربية.

---

(١) فؤاد حسنين على: قصصنا الشعبية ٦٢

وفي أيام الفتنة انضموا إلى صفوف على بن أبى طالب...!!
وهكذا فنحن لانستطيع أن نُصنفهم تصنيفا خاصاً بحيث نجنح كما جنح بعض المؤرخين.. فنقول إن نزعتهم القبلية كانت هى المسيطرة، بل إننا نقول ما نعتقد أنه الحق الذى أثبته تاريخهم، وهو أنهم كانوا أيام ذوبان العصبية القبلية.. كسائر المسلمين، يتحركون بعقيدتهم.. أما أيام التفكك القبلى... فكانوا - ككثير من البطون العدنانية والقحطانية - يتحركون بدافع من هذه العصبية القبلية التى ما فتئت بين الحين والحين تبرز في صورة من الصور!!

الهلاليون فى العراق والشام ومصر قبل التغربة

ومعروف أن سياسة الدولة الإسلامية، راشدية وأموية، إنما كانت تميل إلى تشجيع استيطان بعض أبناء القبائل العربية فى البلاد المفتوحة.. نشراً للإسلام والعربية من جانب، وتحقيقاً للاستقرار والتلاحم بل الامتزاج الحضارى من جانب آخر... وكانت القبائل القيسية أميل إلى الروح العراقية وطبيعة العراق لعدم وجود فاصل مكانى كبير مع نجد.. وهى أشد القبائل تمسكا بالروح النجدية البدوية... وربما لأسباب أخرى ليس همنا هنا حصرها...

«وكانت لسليم وهلال محلات فى حواضر العراق، من ذلك ما ذكره الطبرى أن فريقا منهم اتخذوا لهم محلة ببوادى الكوفة حوالى سنة ١٢٠هـ وكان فى هذا الموضع مسجد يعرف بمسجد بنى هلال. كما أن بنى هلال هاجروا إلى بلاد الشام وغلبوا على أرباض حلب والموصل ونزلوا المنازل التى كانت قبلهم لربيعة وكهلان، واستقر بعضهم فى نجد لم يغادروها مع الأفواج التى غادرتها وظلت فى مكانها إلى القرن الرابع الهجرى.. أما فى مصر فإن صاحب الخراج فيها استقدم إلى الجوف الشرقى أيام هشام بن عبد الملك

الأموى عام(١٠٩هـ) أبياتا قيسية من نصر بن معاوية وعامر بن صعصعة وغيرهما من بطون هوازن.. ويذكر ابن خلدون أن آخر مواطن العرب الهلالية كانت فى برقة إذْ انتجعها بنو قرة بن هلال بن عامر(١)

* * *

وبسقوط دولة بنى أمية سنة ١٣٢هـ، والتى كانت دولة متعصبة للعرب، سيطرت دولة بنى العباس التى علا فيها شأن الفرس والأجناس الأخرى كالأتراك.. وبالتالى شعر الهلاليون بنوع من الانفصال العاطفى عن هذه الدولة...

وما إن قامت قوة القرامطة حتى كان هؤلاء من جنودها ضد الدولة العباسية، متخذين من قلاعها فى«البحرين» سنداً وعوناً.. لكن ذلك الارتباط بالقرامطة لم يكن عن قناعة مذهبية بل كان مجرد خروج على العباسيين من جانب، وتعبير عن النزعة القبلية التى بدأت تظهر فيهم من جانب آخر، بعد أنْ كان الإسلام قد أخْفاها فى نفوسهم.

* * *

ولم يكد أمر القرامطة يضعف، وتظهر قوة جديدة، هى قوة الفاطميين الذين كانوا قد سيطروا على المغرب مع بداية القرن الرابع الهجرى، حين قضوا على دولة بنى رستم فى الجزائر(وهى دولة خارجية أباضية) وعلى دولة الأغالبة فى تونس... لم يكد الفاطميون يظهرون كقوة جديدة حتى انخرط هؤلاء فى سلكهم، وبخاصة عندما استقرت دولة الفاطميين فى مصر.. وقد تمت هجرة الهلاليين إلى مصر فى عدة حلقات:

---

(١) نقلا عن: عبد الحميد يونس: الهلالية ٦٣،٦٤

الحلقة الأولى:

في أواخر أيام المعز لدين الله الفاطمى، وبداية عهد العزيز بالله أى فى العقد الثامن من القرن الرابع تقريبا.

الحلقة الثانية:

كانت فى أواخر عهد العزيز بالله الفاطمى أى على مشارف القرن الخامس الهجرى.

الحلقة الثالثة:

هجرات متلاصقة أشبه بغارات استطاع الفاطميون ترويضها، ووضعها فى مكان الخدمة النظامية، أو العمالة أو الفلاحة فى صعيد مصر.. مما جعل شوكة هؤلاء تخف وطأتها، ويستجيبون لنظم الدولة!!! «وقد وصل هؤلاء جميعاً إلى مصر عن طريق الشام مروراً بعسقلان فغزة فرفح فالعريش فالعذيب فالفرما».[1]

إلى أن استقروا استقرارهم المؤقت فى صعيد مصر، حتى كانت فرصة تخلّص الفاطميين منهم فى تلك الفكرة الخطيرة التى خطرت للمستنصر الفاطمى ووزيره «اليازورى» حين ثار على التبعية الفاطمية والمذهب الشيعى الأمير الزيرى فى تونس «المعزّ بن باديس».. فسلّطهم عليه، وساعدهم بالمال والطعام والأنعام، مما سنفصل ذكره فى الصفحات التالية بإذن الله.

---

(١) بتصرف من المرجع السابق ٦٧



الفصل الثالث

أحوال بنى هلال في مرحلة التغربة



نستطيع أن نحدد عصور بنى هلال التى يجب تبيان صورتها، واستجلاء الأوضاع فيها، بأنها القرون الثلاثة:(الرابع والخامس والسادس للهجرة)، ثم بقيت لهم تأثيرات غير ذات جدوى كبيرة خلال القرنين السابع والثامن. لكنهم، كانوا، خلال القرنين الأخيرين، قد فقدوا طابعهم القبلى، وتحولوا إلى لبنات منتظمة فى المجتمعات التى اندمجوا فيها.

* * *

والمعروف أنه خلال سنوات القرن الرابع للهجرة كان العالم الإسلامى قد بدأ يدخل مرحلة التحول إلى مسرح الصراعات هادئة وحادة، تجرى أحيانا ظاهرة وأحيانا خفية، وكان يبدو فى صورته تلك وكأنه عالم يعاد تركيبه على نحو جديد، ثم حمل القرنان التاليان(الخامس والسادس الهجريان)... صورة التركيب الجديد لهذا العالم!!

لقد بدأت تبرز بوضوح خلال هذا القرن ظاهرة الفوضى الدينية والسياسية التى تمثلت فى وجود خلافات إسلامية ثلاث تقتسم العالم الإسلامى، وتتنازع الزعامة عليه، ثم فى وجود حركات انشقاق روحى وسياسى عن هذه الخلافات الثلاث توشك كلها أن تفقد مكانتها الروحية والسياسية.

لقد أحسّت الدولة الفاطمية التى كانت تسيطر على بلدان المغرب العربى إلى عام ٣٦٢هـ(٩٧٢م) سيطرة سياسية كاملة بشئ من عدم الاطمئنان فى تلك الوهاد الوعرة، وتأكد لحكامها أن المغرب العربى لم يتشبع بالأفكار الشيعية، وبأنه لا يصلح ـ بعد طول كفاح ـ قاعدةً ثابتة لانطلاق الدعوة الشيعية، فقد توسل الفاطميون بكل وسيلة لمصارعة خصومهم من السنة المالكية، ولرفع لواء مذهبهم... توسلوا بالمناظرة، فعقدوا المجالس، وجلبوا أئمة المالكية بالقيروان، وأخذوا يناقشونهم بالحجة ويصارعونهم بالرأى فما ازدادوا ـ أى المالكية ـ إلا تمسكا برأيهم(....)، فلم يجدوا بدا من التنكيل

والتعذيب، وأفتى فقهاؤهم: بأن من انتقص واحدا من نسل فاطمة فإنه مباح الدم، فجلسوا إلى المساجد ومعهم الدعاة، وأحضروا الناس بالعنف والشدة ودعوهم إلى التشرق(التشيّع)(١)

فمن أجاب أحسنوا إليه، ومن أبى حبسوه(٢)

وقد وقف المالكيون في وجه بني عبيد بكل الطرق التي أتيحت لهم، ولم يكن المذهب المالكي بالنسبة إلى أكثريتهم مجرد مذهب من مذاهب فقهية كثيرة، بل كان بالنسبة إليهم حصناً يعتصمون به في مقاومة التشيع(٣) لقد كان من أبرز أهداف خروج الفاطميين من المنصورية إلى القاهرة البحث عن قاعدة جديدة قوية تستطيع الدعوة الشيعية أن تجد فيها الأمن والاستقرار والانتشار بعد أن يئس الفاطميون من المغاربة «المعروفين بطبعهم بالعصبية... يتعصبون للشئ فيخلصون و يصلون إلى حد التضحية بأنفسهم في سبيل المبدأ الذي يؤمنون به»(٤)

ولئن ظل بلكين بن زيري الصنهاجي المستخلف على المغرب من قبل المعز لدين الله الفاطمي وفياً لدولة الفاطميين بمصر، فإنه كان مضطرا إلى ذلك بحكم المتاعب الداخلية التي يتعرض لها من القبائل المنافسة لصنهاجة، والتي كانت تطمع في حكم المغرب العربي بعد رحيل الفاطميين عنه، يؤكد ذلك تلك الحروب التي خاضها بلكين وابنه المنصور من بعده مع زناته

---

(١) كانت الشيعة تسمى بالمغرب المشارقة نسبة إلى أبي عبد الله الشيعي الذي كان من المشرق(الكامل لابن الأثير ج٩ ص ٢٩٥) طبعة دار صادر ببيروت ١٩٦٧، ولا زال إخواننا المغاربة يطلقون كلمة المشارقة على المصريين والسوريين والفلسطينين دون تمييز

(٢) انظر عن جهود أبي عبد الله وأساليبه وأساليب الشيعة من بعده البيان المغرب لابن عذارى ١٦٦/١، وما بعدها،٢٢٠، ٢٢٦ طبعة دار بيروت

(٣) رياض النفوس للمالكي ١٢٣(مقدمة) دكتور حسين مؤنس مكتبة النهضة المصرية الطبعة الاولى ١٩٥١.

(٤) المرجع السابق ص ٩٩

وكتامه وغيرهما من القبائل التى كانت ترى لنفسها حق حكم المغرب-مما سنفصله بعد

وعلى الرغم من أن باديس بن المنصور بن بلكين(٣٨٦-٤٠٦هـ) (٩٩٦-١٠١٦م) ترسم خطاأسلافه فى إعلان ولائه للخليفة الفاطمى، وعمله على نشر المذهب الاسماعيلى ورفع لوائه ومحاربة أهل السنة وتسخير الجند والشرطة فى النيل من فقهاء المالكية....

على الرغم من هذا نشب النزاع بينه وبين الحاكم بأمر الله بسبب تدخل هذا الخليفة فى شئون طرابلس، ومحاولة انتزاعها من الزيريين، وهكذا ساءت العلاقة بينهما، وكان من أثر سياسة الحاكم بأمر الله أن بدأ أهل السنة فى القيروان ينشطون فى نشر دعوتهم، وكان من مظاهر ازدياد نفوذ أهل السنة فى عهد باديس أن عهد إلى فقيه سنيى يدعى«أباالحسن بن على الرجال» بتربية ولى عهده وتنشئته وكان أبو الحسن سنياًمالكى المذهب فأخذ يحبب للأمير الصغير عقائد المذهب السنى، وكان اختيار هذا الفقيه لتربية ولى العهد فوزاً بعيد المدى للمذهب السنى فى افريقية، ظهر أثره فى مذبحة الشيعة بأفريقية التى وقعت فى عهد المعز بن باديس سنة ٤٠٧هـ(١٠١٦)(١).

وقد كانت مذبحة الشيعة الآنفة الذكر فاتحة عهد من الصراع البارز عبَّر فيه المغرب عن مستوى التأثير الشيعى السطحى،بل الكراهية النفسية العميقة،التى يكنها لأساليب ودعاة الدعوة الشيعية،فإن المعزّبن باديس-الذى حدثت المذبحة بعد توليه الحكم بعام واحد ــ كان هو «أول من صرف دعوة العبيديين إلى غيرهم من بنى العباس،وأزال اسماءهم من السكة في سنة

(١) تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب للدكتور حسن ابراهيم ص ٤٤، ٣٣٥ط ٢ مكتبة النهضة المصرية وانظر فى تفصيل هذه الحادثة ــ الكامل لابن الأثير حوادث سنة٤٠٧هـ والعبر لابن خلدون المجلد ٦/ ص ٣٢٥ منشورات دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر سنة ١٩٦٨

ثلاث وأربعين-أى وأربعمائة(١)ولاشك فى أن انتقال عاصمة الفاطميين من تونس الى القاهرة فصل عنهم أمراء البربر تدريجيا(٢)واذا تجاوزنا هذه النهاية التى أصابت الدولة الفاطمية فى المغرب العربى،والتى لم تنجح «الحملة الهلالية»-التى رمت بها الخلافة الفاطمية المغرب في اعادته إلى حظيرتها،بالرغم من نجاحها في الانتقام من المعز.... إذا تجاوزنا هذا،وانتقلنا من الخلافة الفاطمية إلى مقرها الجديد في القاهرة منذ سنة ٣٦١هـ ٩٧١م لنرى الحال التى كانت عليها هذه الخلافة ــ باعتبارها احدى القوى الاسلامية الثلاث الكبرى فى ذلك العصر. وباعتبارها أكثر الدول احتكاكا بالدولة موضوع دراستنا، اذا انتقلنا هذه النقلة، وجدنا أن الدولة الفاطمية فى مصر، لاسيما بعد عهد المعز لدين الله الفاطمى الذى يعتبر أعظم ملوكهم قدراً وأجلهم خطرا(٣) واتّصافا بقوة العزيمة ورحابة الصدر والزهد والحلم(٤) والذى «ملك بلاد المغرب بأسرها إلى البحر المحيط وبرقة والاسكندرية ثم مصر والشام والحجاز» (٥)

وبعض أعمال العراق وجزء من البحر الأبيض حتى « الأتلانتيك» من ناحية أخرى(٦) كما أنه في عهده«بلغت القاهرة من الازدهار والعزّ شأواً بعيداً(٧) عبرنا هذه الحقبة القصيرة، ونظرنا إلى هذه الخلافة فى مقرها الجديد بعد سنوات قلائل من موت المعز، وجدناها بدأت تدخل فى دور انحطاط،

---

(١) أعمال الاعلام ج ٣ لسان الدين بن الخطيب تحقيق د ــ أحمد العبادى والأستاذ محمد ابراهيم الكتانى ص ٧٣ نشر دار الكتب بالدار البيضاء ١٩٦٤م

(٢) الاسلام هنرى ماسيه ترجمة بهيج شعبان منشورات دار عويدات بيروت ص ٨٢

(٣) أعلام الأعلام ٣/٥٥

(٤) المعز لدين الله د/ حسن ابراهيم وطه شرف ١٩، ٢٨٧، ٢٨٨ ط٢ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٣

(٥) المرجع السابق ص ٥٨

(٦) العرب - تاريخ موجز فيليب متى ص ٢٢٣ دار القلم للملايين ط ٤ ١٩٦٨ والاسلام هنرى ماسية ص ٨٢

(٧) الخطط المقريزية لأحمد بن على المعروف بالمقريزى ٢/١٦٧

ظهر واضحا منذ عهد الحاكم بأمر الله أبي علي المنصور المتوفى سنة ٤١١هـ(١٠٢٠م) فإن سياسة هذا الخليفة التي اتسمت بالشذوذ والاضطراب والتناقض في الأخلاق حتى إنه كان يأمر بالشئ و ينهى عنه (١) نتيجة سوء المزاج المرضي في دماغه(٢) هذه السياسة فضلا عن كونها تعكس صفات شخصيّة له ـ كانت تعكس اضطرابا واضحا بدأ يظهر في السياسة الفاطمية.

لقد كانت للحاكم أعمال جيدة في حماية الأخلاق، كمنع شرب الخمر، وصناعة البيرة المسماة(فقاع)، وتحريم دخول الحمام بغير مئزر، ومنعه اللهو العلني، وافراده لأهل الذمة حمامات ومنعه النساء من الخروج(٣)

كما أنه أصدر قرارات جيده تعالج أوضاعا اقتصادية أو اجتماعية كأمره بمنع ذبح البقر الولود توفيرا للانتاج الحيواني(٤) وكحماية أموال اليتامى (٥) والغاء كثير من المكوس التي ابتدعت (٦)

لكن هذه الأعمال الجيدة لاتنفي عن الحاكم صفة الاضطراب والسياسة غير المستقرة، لدرجة أزعجت الناس أيما ازعاج، وحولت عهده إلى عهد دموي، وفي معظم سنوات حكمه تتصدر أخبار القتل لكثير من الناس ومن بينهم أخص المتّصلين به خلال سنوات حكمه، فضلا عن الاضطرابات الأخرى التي لا يقوم تبريرها على أسس قوية، وقد اضطر الحاكم نفسه إلى

---

(١) المؤنس في أخبار افريقية وتونس صـ ٦٨ لابن أبي دينار تحقيق محمد شمام المكتبة العتيقة بتونس ٣٨٧، وانظر العرب والعروبة جـ ٣ الأستاذ عزة دروزة صـ ٤١٠، ٤١١ دار اليقظة العربية ١٩٦٠م

(٢) الحاكم بأمر الله الأستاذ محمد عنان مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ط ٢ سنة ١٩٥٩ م صـ١٦٧

(٣) نظام الفاطميين(دروسهم في مصر د/ عبدالمنعم ماجد / مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٣ صـ ١٦٧

(٤) اتعاظ الحنفا جـ ٢ للمقريزي تحقيق الدكتور محمد حلمي أحمد صـ ١٤(مقدمة) طبع المجلس الأعلى للشئون الاسلامية

(٥) المرجع السابق صـ ٢١ ،٢٣

(٦) المرجع السابق صـ ١٦(مقدمة)

اصدار أمانات أكثر من مرة لتطمين الناس بعد أن أصابهم اليأس في عهده(١)

ويدل قتله للجرجرائى الكاتب(غين) مساعده بطريقة فيها كثير من السخرية والتذبذب - على عقليته المضطربه(٢) ويلخص الدوادارى رأيه فى الحاكم، بأنه كانت له محاسن فى ابتداء أمره، ومساوئ صدرت عنه هى الجنون بعينه من خرافات دنيوية ودينية، ثم سرد محاسنه ومساوئه بالتفصيل(٣) - كما لخصناها -

ويحكى لنا المؤرخ جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤هـ في النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، والامام الحافظ جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ في كتابه تاريخ الخلفاء وغيرهما نماذج من سلوك هذا الخليفة، تعكس هذا الاضطراب الذى ذكرناه آنفا..

فى سنة ٣٩٥هـ(١٠٠٤م) قتل الحاكم بمصر جماعة من الأعيان صبراً وقتل من العلماء والكتاب والأماثل مالا يحصى، وأمر بكتابة سب الصحابة كأبى بكر وعمر وعثمان وعائشة وطلحة وغيرهم على أبواب المساجد والشوارع، ثم محا ذلك فى سنة ٣٩٧هـ (١٠٠٦).

وفي سنة ٣٩٦هـ (١٠٠٥)أمر الناس بمصر والحرمين إذا ذكر الحاكم أن يقوموا ويسجدوا في السوق وفي مواضع الاجتماع ....

وفي سنة ٣٩٨هـ (١٠٠٧م)هدم الحاكم بيعة قامة التى بالمقدس وأمر بهدم جميع الكنائس التى بمصر... وفي سنة ٤٠٢هـ (١٠١١م) نهى الحاكم

---

(١) انظر اتعاظ الحنفا جـ ٢ صـ ٧٧(سنة ٣٩٩)

(٢) اتعاظ الحنفا جـ ٢ صـ ١٠١

(٣) كنز الدرر جـ ٦ تحقيق صلاح الدين المنجد طبع القاهرة سنة ١٩٦١ صفحات ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠

عن بيع الرطب وحرمه وعن بيع العنب، وأباد كثيرا من الكروم. وفي سنة ٤٠٤هـ (١٠١٣م) منع النساء من الخروج(١)

ولئن كانت هذه الاضطرابات ترجع إلى المزاج الشخصى للحاكم - إلى حد كبير - فإنها كانت عاملا مهما فى تقويض دعائم الخلافة الفاطمية، وفى تفكير الدول التابعة لها فى محاولة الخروج عليها.

ولم يستطع الخلفاء الفاطميون الذين جاءوا بعد الحاكم إعادة كيان الدولة إلى المستوى الذى كانت عليه على عهد المعز لدين الله الفاطمى.

فان الظاهر(أبوالحسن على بن الحاكم بأمر الله) الذى، ولى أمر الخلافة الفاطمية بعد موت أبيه الحاكم، لم يكن أكثر من صبى تشرف عليه عمته ست الملك(٢) طيلة خمس سنوات من حكمه، وأما سنواته الباقية، فقد كانت حافلة بصراع بين المغاربة والأتراك (٣) وبالفقر والغلاء(٤)فضلا عن اشغاله بملاذه ونزهه وسماع المغنى(٥)

ولم تكن أيام المستنصر(أبوتميم معد بن الطاهر) الذى ولى الأمور سنة ٤٢٧هـ(١٠٥٣م) أفضل من أيام سابقيه كثيرا، بيد أنه فترة حكمه قد استمرت ستين سنة وأربعة أشهر(٤٢٧-٤٨٧هـ)، فتتابعت بالتالى عليها الظروف المتبانية، وتقلبت أحوال مصر بين الشدة والرخاء والضعف

---

(١) انظر النجوم الزاهرة جـ ٤ صـ ١٧٦ وما بعدها نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، وانظر تاريخ الخلفاء للسيوطى صـ ٤١٤ وما بعدها طبع مطبعة السعادة تحقيق محمد محى الدين عبدالحميد ١٩٥٢. وانظر تاريخ مختصر الدول لابن العبرى صـ ١٨٠ وما بعدها، وانظر الكامل لابن الأثير جـ ٩ صـ ٣١٥، ٣١٦، ٣١٧، وانظر البداية والنهاية ٤١١/٩ وانظر تاريخ الدولة الفاطمية دكتور حسن ابراهيم صفحات ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٥

(٢) انظر اتعاظ الحنفا١٢٥/٢

(٣) المرجع السابق صـ ١٧٧

(٤) المرجع السابق صفحات ١٦٤، ١٦٥، ١٦٩، ١٧٠، ١٨٠

(٥) المرجع السابق صـ ١٨٢

والقوة«غير أن مصر لم تتمتع طوال هذه المدة بالرخاء والطمأنينة غير فترة قصيرة»[1]

وعندما كان المستنصر فى سن التاسعة عشرة(٤٣٩هـ)- أى فى السنة الثانية عشرة من خلافته - زار ناصر خسرو مدينة مصر، ووصف مارآه من أحوالها وحكى عديدا من صور الثراء فيها [2] وذكر أن أهل مصر في غنى عظيم(...) يثقون بالسلطان فلا يخشون الجواسيس ولا الغمازين، معتمدين على أن السلطان لا يظلم أحدا ولا يطمع فى مال أحد »[3] لكن لم تكن تمض على زيارة خسرو لمصر أكثر من خمس سنوات - حتى اتقلبت حال مصر إلى أسوأ حال - ولأكثر من أربعين سنة من مدة خلافة المستنصر، اضطربت أحوال مصر بدرجة كبيرة.

فى سنة ٤٤٤هـ قصر مدّ النيل، ولم يكن في المخازن السلطانية شئ من الغلال - فاشتدت المسغبة بمصر[4] وفي سنة ٤٤٦هـ نزع السعر ووقع البلاء(...) واشتد الأمر على الناس [5]

وقد كانت هذه السنة بداية ماعرف في تاريخ المستنصر بالشدة العظمى(٤٤٦ - ٤٥٤هـ) التى حدث فيها الغلاء الذى ماعهد بمثله منذ زمان يوسف عليه السلام، ودام سبع سنين، حتى أكل الناس بعضهم بعضا، حتى قيل، إنه بيع رغيف واحد بخمسين ديناراً، وحتى إن المستنصر بقى يركب

---

(٥)تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسوريا وبلاد العرب دكتور حسن ابراهيم صـ ١٦٩

(٦) سفرنامة ترجمة الدكتور يحى الخشاب ط ١ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر صـ ٦٢، ٦٣، ٦٤

(٧) المرجع السابق صـ ٦٢

(٨) اتعاظ الحنفا ٢/٢٢٤

(٩) المرجع السابق صـ ٢٢٦

وحده، وخواصه ليس لهم دواب يركبونها، وإذا مشوا سقطوا من الجوع،(١) ولم تنته موجة الانهيار الاقتصادي بانتهاء الشدة العظمى، بل استمرت بصورة ما إلى سنة ٤٦٦هـ (٢) مما اضطر المستنصر إلى استدعاء بدر الجمالى والتخلى - ضمنيا- عن الحكم، والاكتفاء بصورة الخلافة.

ويذكر المقريزي أن سبب ماحصل لمصر نقص النيل (٣) واختلاف الكلمة، ومحاربة الأجناد بعضهم مع بعض(٤)

وحقيقة أن ماحدث لمصر أيام المستنصر كان حصاد عوامل كثيرة، منها سياسة الحكام الفاطميين منذ الحاكم، ومنها الصراع الفكرى الذى دار في البلاد بين الفاطميين الذين حاولوا فرض مذهبهم، والناس الذين أرغموا على التظاهر بمالا يعتقدونه، ومنها الصراع الذى بدا كعملية طبيعية بين الفاطميين والعباسيين في بغداد، بالاضافة إلى الأسباب التى ذكرها المقريزي والتى تمثل أبرز العوامل المباشرة في الانهيار، وقد ظلت السلطة الفعلية ضائعة من أيدى الخلفاء الفاطميين، وظلوا يتتابعون كالدمي في أيدى الوزراء العظام الذين كان أولهم أمير الجيوش بدر الجمالى الأرمني المتوفي سنة ٤٨٧هـ وزير مصر للمستنصر بل صاحب أمرها وعقدها وحلها (٥)

حتى جاء صلاح الدين الأيوبى فلم يلق أية مقاومة حقيقية في القضاء على هذه الخلافة الفاطمية خلال الحقبة التى نؤرخ لها، فإن الخلافة العباسية لم تكن أسعد حالا من رصيفتها، بل كانت أكثر سوءا وانحلالا.

لقد تسلط البويهيون على خلفاء الدولة العباسية، بحيث انتزعوا منهم أدنى

---

(١) انظر اتعاظ الحنفا ٢٧٩/٢ ومابعدها
(٢) انظر اتعاظ الحنفا صـ ٣٢٧٩، ٢٩٦، ٣٠٧
(٣) اغاثة الأمة صـ ١٨
(٤) اتعاظ الحنفا ٢٩٩/٢
(٥) الكامل لابن الأثير جـ ١٠ صـ ٥٨٩

وظائف الحكم ــ وضعف أمر الخلافة جدا حتى لم يبق للخليفة أمر ولا نهى ولا وزير أيضا، وإنما الدولة ومورد المملكة ومصدرها راجع إلى معز الدولة ــ البويهي،(١) وإلى خلفائه البويهيين من بعده. ولقد خلع البويهيون الخليفة المستكفى بعد تسلمهم الحكم وقد سملوا عينيه، وأودعوه السجن(٢) وقد أصبح هذا نهجهم مع الخلفاء طيلة عهدهم الذى سيطروا فيه على الخلافة العباسية.

إن الخليفة الثالث والعشرين من سلسلة خلفاء بنى العباس (المطيع لله أبا العباس الفضل بن المقتدر) الذى ولى الخلافة سنة ٣٣٤ هجرية(١) — وبقى فيها حتى خلع نفسه سنة ٣٦٣هـ(٩٧٣م) هذا الخليفة يصف القلقشندى توليته بأنها تمت، وقد ازداد أمر الخلافة إدباراً، ولم يبق للخلافة أمر نافذ، وتسلم نواب معز الدولة البويهى العراق بأسره، ولم يبق في يد الخليفة غير ما أقطعه عز الدولة مما يقوم ببعض حاجته، وأما الخليفة الرابع والعشرون من خلفاء بنى العباسى الطائع لله، أبو بكر عبد الكريم بن المطيع (٣٦٣-٣٨١ هـ) (٩٧٣-٩٩١م) الذى ظل في منصب الخلافة قرابة ثمانية عشر عاما.. هذا الخليفة يتحدث عنه القلقشندى فيذكر أنه بدوره لم يكن في خلافته ما يستدل به على حاله.

وتنتهى مرحلة خلافة الطائع هذا بنهاية محزنة تعكس القيمة الحقيقية لهذا المنصب الخطير في هذا العهد من عهود الاضطراب والفوضى، فإن الأمر في الحقيقة على عهد الطائع كان بيد ركن الدولة بن بويه وأولاده بفارس، وكان ابن أخيه «بختيار» ــ حاكم واسط ــ يمثل الحاكم الفعلى في العراق، لكن عضد الدولة بن ركن الدولة أنكر على ابن عمه هذه المكانة،

---

(١) انظر البداية والنهاية لابن كثير الطبعة الأولى مكتبة المعارف ١٩٦٦ جـ ١١ صـ ٢١٢

(٢) البداية والنهاية ٢٢١٢/١١

(١) الكامل لابن الاثير ٤٥١/٨

وصرفه بالقوة عن مكانته.. لكن هذا التصرف لم يرض ركن الدولة ابن بوية فأرسل يهدد ابنه الذى اضطر إلى إعادة «بختيار» إلى مكانته. وبقى الأمر كذلك حتى مات ركن الدولة البويهى، وخلفه ابنه عضد الدولة على بلاد فارس ، كما أن ركن كان قد عقد لابنه (فخر الدولة) على همدان ولابنه (مؤيد الدولة) على أصفهان وأعمالها ــ هكذا وكأنه هو الخليفة الفعلى ــ على أن ابنه عضد الدولة قد عاوده حقده القديم على ابن عمه «بختيار» الملقب بعز الدولة فتمكن من قتله سنة ٣٦٧هـ(٩٧٧م) وعمره ست وثلاثون سنة (١) واستقر عضد الدولة في تدبير أمور الخلافة ببغداد إلى أن مات سنة ٣٧٣(٩٨٣م)

ولى الأمر بعده أبنه صمصام الدولة «أبو كاليجار» الذى كان نصيبه السمل، فتولى الأمر ابن آخر لعضد الدولة يدعى شرف الدولة إلى أن توفى فاستقر في الإمارة أخوه أبو نصر بهاء الدولة ــ وكالعادة ــ خلع عليه الطائع وقلده السلطنة.

لكن بهاء الدولة طمع في أموال الخليفة الطائع له، فسلط عليه بعض الديلم الذين أرغموه على خلع نفسه سنة ٣٨١هـ(٢) ولم يختلف الأمر في عهد المقتدر أبى العباس الذى ولاه البويهيون بعد الطائع، وعلى الدرب نفسه سارت الأمور على عهد أبى جعفر عبد الله المعروف «بالقائم» الذى ولى بعد المقتدر سنة ٤٢٢هـ(١٠٣١م) وبقى رمزا باهتا للخلافة إلى سنة ٤٦٧هـ (١٠٧٤م) على الرغم من أنه على الرغم من أنه كان«ورعاً» زاهدا عالما قوى اليقين بالله كثير الصبر، له عناية كبيرة بالأدب ومعرفة حسنة بالكتابة، مؤثراً للعدل والإنصاف وقضاء الحوائج لايرى المنع من شئ طلب منه(٣)

ولم تلبث دولة البويهيين التى عاشت قرنان من الزمن أن تحللت نتيجة

---

(١) وفيات الأعيان١/٢٤٢

(٢) انظر الكامل ٩/٧٩،٨٠

(٣) الكامل لابن الأثيرصـ ١٠ صـ ٩٥

الصراع الداخلى على السلطة بين أبناء عضد الدولة البويهى. وحينئذ قدر على الخلفاء العباسيين الضعاف أن يقعوا تحت سيطرة الأتراك السلاجقة الذين بدأوا يقومون بنفس الدور الذى كان يقوم به البويهيون. وكان ذلك قرابة منتصف القرن الخامس الهجرى(٤٤٧هـ -١٠٥٥م).(١)

هؤلاء الخلفاء العباسيون الضعاف الذين يعيشون عيشة قلقة في ظل عناصر متصارعة طموحة، وأولئك الخلفاء الفاطميون الضعاف الذين يعيشون في ظل وزراء عظام يشكلون بدورهم عناصر متصارعة طموحة.. هؤلاء وأولئك كان يدور باسمهم صراع آخر عقائدى يشكل بدوره سمة من سمات العصر وواحدا من عوامل القضاء عليها معا، ولا تكاد تنظر في حوادث سنة من سنوات هذه الحقبة إلا وتجد أن فيها كانت فتنة بين أهل السنة والرافضة(٢) وابن تغرى بردى يظهر دهشته حين يعرض حوادث سنة ٤٤٢هـ(١٠٥٠م) فيذكر أنه كان من العجائب أنه وقع الصلح بين أهل السنة والرافضة(٣) لكنه يعود في السنة التالية ٤٤٣هـ(١٠٥١م) فيذكر أن فيها عادت الفتنة بين أهل السنة والرافضة(٤).

وبينما كانت الدعوة الشيعية تقابل بحرب عنيفة في المغرب العربى الذى كان مقرها الأول قبل سنة ٣٦١هـ(٩٧١م) وبينما كانت مصر والشام والحجاز تواجه الحرب الدعائية المختلفة الأساليب التى يشنها الجهاز الفاطمى، بينما هذا، كان البويهيون ذو النزعة الشيعية والتبعية للمذهب الزيدى الشيعى يعبثون بخلفاء العباسيين السنيين في بغداد.(٥)

---

(١) البداية والنهاية ٦٦/١٢

(٢) النجوم الزاهرة جـ٥ ص٤٧، وانظر البداية والنهاية ١٣٤/٣١/١٢

(٣) النجوم الزاهرة جـ٥ ص٤٩

(٤) النجوم الزاهرة جـ٥ ص ٥٠، وانظر الكامل ٥٧٥/٩

(٥) انظر الكامل لابن الأثير ٥٤٢،٤٥٢/٨

وهكذا فعلى امتداد الأرض الإسلامية الواقعة تحت حكم هاتين الخلافتين كان الصراع السنى الشيعي وبداخل كل منه مجموعة صراعات مذهبية أخرى - يلعب دوراً خطيراً في تدمير الحياة السياسية والاجتماعية، وكاد يودى بخلافة العباسيين المريضة في بغداد، قبل موتها بأكثر من قرنين من الزمان، لولا ظهور الأتراك السلاجقة وقائدهم طغرل بك سنة ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) هؤلاء الذين اعتبروا - بحق - المعجزة التى انقذت خلافة العالم الإسلامى الكبرى - إلى حين - من سقوط محقق.

اضف إلى هاذين اللونين من الصراع لونا آخر تقليديا هو الصراع بين الأجناس المختلفة التى وسعها الإسلام بعد خروجه من الجزيرة العربية، فهناك العرب والبربر والترك والفرس، وكل عنصر من هذه العناصر يكون بداخله كذلك عناصر متصارعة، تتنازع على السلطة أو العقيدة. فلم يكن هناك امتزاج كاف بين الفرس والإيرانيين والترك الطورانيين، والبربر الحاميين، وبين العرب الساميين، لتتكون منهم أمة متجانسة موحدة، بل ظلت هذه العناصر المختلفة بلا رابطة متينة تحكم الوفاق بينها»[1]

ولئن كلنت الخلافتان العباسية والفاطمية قد آل أمرهما إلى هذه الحال، فإن الأندلس الإسلامى كانت تتعرض لما هو أشد وأنكى، فإذا كان ثمة صراع مذهبي أو جنسى، أو صراع على السلطة يسود أرض الخلافتين فإن ألوانا من كل ذلك كانت تسود الجزيرة الأندلسية، ففى الأندلس اجتمعت قوميات مختلفة متنافرة قل أن يلتئم شملها أو يهدأ لها صراع، كان هناك العرب قيسيهم وكلبيهم، والصقالبة الذين تختلف مشاربهم باعتبارهم أسرى حرب أو أسرى قرصنة مختلفي الجنسيات، والبربر الذين لايرضون بغير الأجسام صحائف والرماح أقلاما، يضاف إلى ذلك أن النصارى في أسبانيا وفرنسا كانوا ينظرون إلى المسلمين من عرب و بربر على أنهم أعداء دين وغزاة فاتحون، ودخلاء غاصبون[2].

---

(١) العرب تاريخ موجز فيليب حتى ص ٢٠٢

(٢) ظهر الاسلام جـ٣ جـ١،٢ احمد امين ص ١٢٥ مكتبة النهضة المصرية

كانت الأندلس تحكم بخلفاء أمويين من أعقاب عبد الرحمن الداخل، وقد استمر حكم الأمويين في الأندلس ما استقامت أُمورهم، فلما جاء خلفاء ضعاف النفوس منغمسون في الشهوات فسد أمرهم، وأخذت الدولة الأموية في الضعف(١). ويعتبر تولى هشام الثانى(المؤيد) الحكم، وهو ابن عشر سنين سنة ٣٦٦هـ وسيطرت أمه«صبح» عليه، وتركها أمور الدولة لمحمد بن أبى عامر المنصور... يعتبر حكم هذا الخليفة الصغير بداية انحلال البيت الأموى(٢)

وهو في الوقت نفسه بدايةٌ لفترة ذات طابع خاص من فترات التاريخ الأندلسى، نستطيع أن نطلق عليها اسم:«عصر الدولة العامرية فى الأندلس»!!

* * *

وقد نجح هذا المغامر أبو عامر محمد بن أبى عامر(المنصور) القحطانى المعافرى في الوثوب إلى الحكم في الأندلس عندما تولى الأمر هشام بن الحكم(٣٦٦- ٣٩٩هـ) الذى مات أبوه وخلفه صبياً في العاشرة من عمره، فقامت على رعايته أمه«صبح» التى «نجح محمد بن أبى عامر» في استمالتها إليه، بمهارته وذكائه.

وقد استطاع ابن أبى عامر أن يخوض بحور الفتن والدسائس التى كانت سائدة، وأن يخرج إلى الشاطئ ظافراً، وأن يتسنم ذروة الحكم للأندلس هو وأسرته من بعده فترة تزيد على ثلاثة عقود، بحيث طغى نفوذ العامرية خلال هذه الحقبة على الخلافة الأموية وإن كان الحكم باسمها. وقد نجح المنصور فى توفير الأمن للرعية، كما أعاد إلى الأندلس الإسلامية هيبتها، إذ قام بخمسين غزوة طوال حكمه البالغ خمسا وعشرين سنة لم يهزم فيها قط(١).

---

(١) نفس المكان السابق

(٢) انظر جذوة المقتبس في ذكر ولاه الأندلس للحميدى ص ٧٨-٧٩ الدار المصرية للتأليف والنشر ١٩٦٦ وانظر موسوعة تاريخ العالم أصدرها وليام لانجروا أشرف على الترجمة دكتور محمد مصطفى زيادة جـ ٢ص ٤٥٠

(٣) انظر الحميدى : الجذوة ٧٨،٧٩

وبوفاة ابن أبى عامر سنة ٣٩٢هـ وابنه عبد الملك، الذى لم يدم حكمه أكثر من سبع سنوات، وكان كأبيه كفايةً ومقدرةً بوفاتها تعتبر الدولة العامرية قد انتهت سنة ٣٩٩هـ(١٠٠٩م). والحقيقة أن أكبر خطأ ارتكبه ابن أبى عامر- بالرغم من كل حسناته - أنه أزال هيبة الخلافة الأموية من نفوس الناس حين تسلط عليها، وفصل بينها وبين الشعب، ولعل هذا كان من أكبر الأسباب فيما أصاب الأندلس بعد ذلك من نكبات الفتنة التى استمرت من ٣٩٩هـ وحتى ٤٢٢هـ، حيث انتهى الأمر بسقوط دولة بنى أمية، وتبعه دخول الأندلس عصر اضمحلال سياسى هو عصر الطوائف.

لقد كان إيمان الناس في الأندلس بالبيت الأموى أقوى بكثير من إيمان الناس به في المشرق(١). ولعل للاختلافات الجنسية أثراً في ذلك، كما أن للبيت الأموى على الأندلس أيادى كثيرة سياسية وحضارية طيلة ثلاثة قرون وبخاصة على عهدى الناصر والحكم، ولذلك كله كان البيت الأموى أملا للمخلصين للإسلام فى الأندلس باعتباره البيت الذى التفّت حوله القلوب، وضعفت على عتبته العنصريات،!!

* * *

وبعد سقوط دولة بنى عامر عاشت الأندلس وقرطبة فترة الفتنة التى امتدت من سنة ٣٩٩هـ حتى سنة ٤٢٢هـ ويكفى للدلالة على ما تمتاز به هذه الفترة من قلق واضطراب كبيرين أنه قد تقلب على الأمر فيها عشرة حكام تولى أربعة منهم الحكم مرتين. وبعض هؤلاء الحكام من الأمويين(٢)، وبعضهم من بنى حمّود(٣) الذين استولوا على السلطة في قرطبة سنة ٤٠٦هـ

---

(١) جورجى زيدان : تاريخ التمدين الاسلامى ٢٢٥/٤ (هامش)

(٢) وهم: محمد الثانى بن هشام، وسليمان بن الحكم، وهشام الثانى، وعبد الرحمن الرابع بن محمد، وعبد الرحمن الخامس ابن هشام، ومحمد الثالث بن عبد الرحمن وهشام الثالث بن عبد الرحمن(راجع القلقشندى صبح الاعشى ٢٤٥/٥،٢٤٦)

(٣) وهم: على الناصر بن حمود، القاسم المأمون بن حمود ويحيى بن على بن حمود(راجع المكان السابق)

وأخذوا يعبثون بالحكم فيولون و يعزلون كما يشاؤن، و يطلقون من الألقاب ما يحلو لهم، وبديهى أنَّ تولى بعض الخلفاء الحكم أكثر من مرة كان بتأثير الفتن الدائرة وأسلوب الانقلابات الدموية.

وقد انفكَّت عروة الدين من النفوس، بعد أن تفككت مشروعية الحكم، فأصبح الأمر صراعاً جنسياً بين عرب وبربر وصقالبة(١)، واستعان بعضهم بالنصارى على بعض!!

لقد شعر الخليفة الشرعى هشام بن الحكم في أخريات أيام الدولة العامرية بعمق الكارثة التى توشك أن تحيط بالأندلس وبالخلافة الأموية، كما أحس بأنه أمام بنى عامر لايعد وأن يكون أسيراً في قصره، محجوباً عن الناس، مقصياً عن دفة الحكم.(٢)

ولئن كان ابن عم هشام الملقب بمحمد بن هشام الثانى(المهدى) قد استطاع بمعونة المؤمنين بضرورة الخلافة الأموية ـ أن يصل إلى الحكم في محاولة أخيرة لإعادة خلافة بنى أمية المتداعية(٣)(١٧جمادى الآخرة سنة ٣٩٩هـ) (١٠٠٨م)ـ فإن بنى أمية في الأندلس، لم يكونوا بقادرين على الصمود في ميدان النضال طويلا، ذلك لأنهم لم تكن لديهم بعد العوامل الأدبية والدينية والتاريخية قوة مادية يعتدّ بها(٤)

كما أنه خلال الفترة التى أمضاها المنصور بن أبى عامر في الحكم كان قد اعتمد على البربر والصقالبة في تكوين جيوشه وفي بقية أعماله، وما إن توفى«المنصور» حتى أصبح هؤلاء قوة ليس من السهل القضاء عليها، فضلا عن أنها أضعفت من كيان بنى أمية كثيرا. ولم يعد ممكنا في ظل هذا

---

(١) انظر/على حبيبة: مع المسلمين فى الأندلس ص ٢٢١، ٣٤٠

(٢) انظر بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية ٣٠٤

(٣) انظر: المراكشى: المعجب ٨٦،٨٧

(٤) انظر محمد عبد الله عنان: دول الطوائف ١٣ مطبعة لجنة التأليف والترجمة ١٩٦٠م.

الوضع -لأية سلطة- -أموية أو غير أموية- أن تثبت وتستقر[1] ولذا.. فلم يمض غير قليل حتى وقعت بين الخليفة المهدى والبربر فتنة أودت بحياته، وأعادت الخليفة«هشام المؤيد» إلى الخلافة بعد غيبة أربع وثلاثين سنة عنها، وكان على رأس القرن الرابع الهجرى.

ويصف لنا«ابن بسام» نقلا عن«ابن حيان» الأعوام السبعة الأولى للفتنة(٤٠٠-٤٠٧هـ)(١٠٠٩-١٠١٦)- بأنها«كانت شداداً نكدات صعابا مشئومات، كريهات المبدأ والفاتحة، قبيحة المنتهى والخاتمة، لم يعد فيها حيف، ولا فورق فيها خوف، ولا تم سرور، ولا نفد محذور، مع تغيّر السيرة، وخرق الهيبة واشتعال الفتنة، واعتلاء المعصية، وطعن الأمن، وحلول المخافة[2]».

كما يصف لنا - نقلا عن ابن حيان كذلك - المستكفى الذى بويع على قرطبة(سنة٤١٤هـ) بعد أن قتل ابن عمه عبد الرحمن«الخامس» ابن هشام المعروف بالمستظهر[3] بمساعدة بعض الأرذال... يصف ابن بسام ذلك بقوله«ولم يكن هذا المستكفى من هذا الأمر في ورد ولا صدر، وإنما أرسله الله تعالى على أهل قرطبة محنة وبلية، إذْ كان منذ عرف غفلا عطلا منقطعا إلى البطالة، مجبولاً على الجهالة، عاطلا عن كل خلة تدل على فضيلة، عضّته الفتنة، فأملق حتى استجاز طلب الصدقه.. رأيتُه -(أى ابن حيان مؤرخ الأندلس)- أيام الخسف بأهل بيته في الدولة الحمودية، ولم يكن ممن لحقه الاعتقال لتحقير أمره، يقصد أهل الفلاحة أو ان ضمهم لغلاتهم يسألهم من زكاتها تكليا ومخاطبة.»[4]

---

(١) انظر المراكشى : المعجب ٨٦

(٢) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٢٥ مطبعة لجنة التأليف والترجمة

(٣) انظر ترجمته في ابن الابار: الحلة السيراء ١٢/٢ وما بعدها

(٤) الذخيرة القسم الأول المجلد الأول ص ٣٨٠

والانصاف يقتضينا أن نذكر أن مسؤلية الفتنة لا تقع على طائفة بعينها، بل تقع على الجميع، ويتحمل فيها العرب والبربر وبنو أمية أقداراً تكاد تكون متساوية وذلك على عكس ما يذهب إليه كثير من المؤرخين من تحميل البربر المسؤلية وحدهم (١).

فالحق أن ما أصاب الأندلس في هذه الفترة كان فتنة عامة يتحمل الجميع مسؤليتها، وقد أدت في نهايتها الى سقوط الأندلس(٢) - التى كانت تحكمها خلافة واحدة فَهَوَتْ إلى معترك مروع من التمزق والفوضى، واستحالت الأندلس بعد أن كانت كتلة موحدة تمتد من ضفاف دويرة شمالا إلى مضيق جبل طارق جنوبا، ومن شاطئ البحر الأبيض من طركونة شرقا حتى شاطئ المحيط الاطلنطى غربا، إلى أشلاء ممزقة ورقاع متناثرة لا تربطها أى رابطة مشتركة(٣).

وكان انقراض ملك بنى مروان بالأندلس على رأس مائتين وثمان وستين سنة وثلاثة وأربعين يوما(٤). ومن الضرورى هنا أن نذكر أن سنة ٤٢٢هـ(١٠٣٠م)- التى سقطت فيها الخلافة الأموية بالأندلس - كانت بداية انهيار الوجود الإسلامى في شبه الجزيرة الأندلسية. وعلى الرغم من الخلاف في الرأى حول مسؤلية أبى الحزم جهور بن محمد بن جهور، وحول التقدير التاريخى لدوره - فإن هذا الرجل هو الذى أعلن رسمياً- نتيجة عدم وجود من يستحق لقب الخلافة من بنى أمية - سقوط الدولة الأموية، وبداية عهد الطوائف، واستئثاره نفسه بحكم قرطبة، التى زعم أنه سيحكمها حكما شوريا جماعياً، لكن ذلك بالطبع لم يكن أكثر من شعار شأنه شأن سائر الشعارات!!

وبأسلوب بديع يصور لنا «المقرى» هذه الومضة الفاصلة في التاريخ، والتى مهدت لها ظروف كثيرة، وجنى ثمارها بنو جهور... فيقول:

---

(١) انظر المقرى: نفح الطيب ٤٠٦/١ في حديثه عن دولة العلويين «بنى حمود»

(٢) E. levl - Prsven Çal . en relisont. le Collier De la colompe. p 345.

(٣) عنان: الدولة العامرية ١٧٨

(٤) ابن الابار: الحلة السيراء ٨/٢

«وبنو جهور كانوا وزراء الأمويين، ثم إنه لما انتشر عقد الخلافة استبدَّ بقرطبة الوزير أبو الحزم بن جمهور من غير أن يتعدى اسم الوزاره»(١).

ـــ وهذه كانت المرحلة الأولى في تخطيطه... وقد كان أبو الحزم ـ وزيراً للدولة العامرية فشرفت بجلاله، واعترفت باستقلاله، فلما انقرضت، وعاقب الفتنة واعترضت، تحيز عند التدبير مدتها، وخلى أعباء الخلافة وشدتها، وجعل يقبل مع اولئك الوزراء ويدبر، ويدير الأمر معهم ويدبر(٢).

ـــ وهذه هى الخطوة التالية في تخطيط أبى الحزم الداهية ـ أما الخطوة الثالثة والحاسمة فكانت عندما «انقرضت الدولة الأموية، وارتفعت الدولة العامرية فاستولى على قرطبة عند ذلك أبو الحزم، ودبَّر أمرها بالجد والعزم، وضبطها ضبطا أمَّن خسائفها، ورفع طارق تلك الفتنة وطائفها، وخَلاَلَهُ الجُّو فطار، وقضى اللبنات والأوطار»(٣) وانتثر عقب هذا عقد الأندلس بين العناصر الثلاثة المتصارعة إلى أكثر من عشرين دولة:(٤) البربر في الجزء الجنوبى، والصقالبة في القسم الشرقى، أما باقى البلاد فكانت بين اسرات العرب.(٥)

ومن هذه الممالك:

١) موالى العامرية في الشرق الاندلسى. ويتدرج تحتها حكم(خيران العامرية) للمرية ومرسية، وحكم(مجاهد العامرى)وابنه(لدانيه والجزائر)«(٤٠٠-٤٦٨هـ)» الى أن ضمها بنو هود إلى ملكهم.

---

(١) نفح الطيب ٢٨٢/١

(٢) المكان السابق

(٣) نفح الطيب ٢٨٢/١،٢٨٣

(٤) انظر عنان: دول الطائف ١٦

(٥) انظر بروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية ٣٠٦(طبعة بيروت الكاملة)

٢) بـنـو زيرى(فـي الجـنـوب) فى غـرناطة ومالقة،ثم توسعت فضمت قبرة وجيان ومالقة، وبنو الأفطس أصحاب بطليوس، وبنو ذى النون فى طليطلة، وبنو رزين أصحاب السهلة.

٣) بـنـو عـبـاد أصحـاب أشبيلية(٤١٤-٤٨٤هـ) الذين ظلوا يتوسعون حتى أصـبـحـوا أكبر دولـة من دول الطوائف(١). وبنو هود أصحاب سرقسطة، وبنو القاسم الفهريون في البونت، وبنو حمود الحسينيون بالجزيرة.

٤) بـنـو جهور(موالى الأموية) في قرطبة، وتشمل إمارتهم مدناً أخرى مثل جيـان وبـيـاسةوأبذ(٢) وقد سقطت المدينة بعد (٤٠ سنة) من حكمهم في يد بني عباد، فزالت -بالتالى- دولة بنى جهور.

وهـكـذا عـاشت الأندلس عصر الطوائف الذى مزق أوصالها وكاد يودى بمستقبل الإسلام فيها.

رأى ابن خلدون فى هذا العصر:

ان ابـن خـلـدون يرجـع ظـاهرة الانقسام الذى أصاب الدول الإسلامية الـكبرى إلى إختلاف الآراء والأهواء، وأنَّ وراء كل رأى منها وهوى،عصبية تـمانع دونها، فيكثر الانقضاض على الدولة والخروج عليها فى كل وقت، وإن كانت ذات عصبية (٣).

وهـو يرى أنه إذا تحكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد وحصول الترف والـدعـة أقـبـلـت على الهرم، لأنـهـا تـقـتـضى الانفراد بالمجد، ومهما كان المجد

---

(١) انظر بروكلمان تاريخ الشعوب الاسلامية ٣٠٧

(٢) انظر القلقشندى: صبح الأعشى ص ٢٤٨ وما بعدها

(٣) مقدمة ابن خلدون الجزء الثانى ص ٤٧٦

مشتركا بين العصابة، وكان سعيهم له واحداً وكان همهم في التغلب على الغيروالذبّ عن الحوزة، أسوة في طموحها وانوة شكائمها، ومرمـاهم إلى العزّ جميعا، يستطيعون الموت في بناء مجدهم، و يؤثرون الملكة على مساره، أما إذا انفرد الواحد منهم بالمجد قرع عصبيتهم، وكبح من أعنتهم، واستأثر بالأموال دونهم، فتكاسلوا عن الغزو وفشل ريحهم(١).

لكن رأى(ابن خلدون)ـ فيما يتعلق بالنزعات والأهواء ـ ليس جار ياً على إطلاقه، فإن الأمم والأمبراطور يات الكبرى تستطيع إذا كان بناؤها الذاتى قو يا أن تستوعب هذه النزعات والأهواء، وأن تهضمها وتخرجها كإفرازات طبيعية لجسم حي قوى، أما ما يراه ابن خلدون من تحكم طبيعة الملك وما يستلزمها من الانفراد بالمجد والانفصال عن الأمة وواقعها والاستبداد والترف... فانه يؤدى إلى ظاهرتين خبيثتين تدل عليها تجر بة الأمة الإسلامية خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة .

أولها:

التناطح الداخلى بين أبناء العصبية الواحدة، فمها كانت سطوة الحاكم المستبد، فإنه لن يعدم من ذو يه الذين لايتهيبونه تهيب العامة ـ ممن ينفسون عليه و يشكلون قوة مضادة تعمل على تحطيمه.

والظاهرة الثانية:

هى ردّ الفعل الذى يحدثه الانفراد والاستبداد، والذى يحدث غالبا شَكلاً تاماً للسلطة المستبدة فبعد أن شاهدنا الخلفاء العظام الأقو ياء الذين

(١) المقدمة الجزء الثانى ص ٤٨٢

تصدروا خلافة الأمويين في الأندلس كالداخل والناصر، والذين تصدروا الخلافة العباسية كالمنصور والمأمون والرشيد، والذين تصدروا الخلافة الفاطمية في القاهرة كالمعز والعزيز... ...وبعد أن شاهدنا هؤلاء، رأينا قوة الخلفاء تنحط في كل العالم الإسلامى - في فترات متقاربة - حتى لم يعد لهم من الأمر شئ - على النحو الذى المعنا إليه سابقا...!!

* * *

ومضات مشرقة:

لكن صورة هذا العصر لم تخل من بعض الومضات المشرقة التى تحتم موضوعية البحث الإلمام إليها، فإن القرن الخامس الهجرى الذى شهد مظاهر الضعف التى خيمت على إفريقية، شهد قبائل صحراوية كانت تنزل في المناطق الجنوبية من المغرب الأقصى، كانت قد أسلمت حديثا، وانبعثت من صفوفها حركة سلفية إصلاحية وحّدت هذه القبائل، ودفعتها إلى الجهاد، فعبرت البحر إلى الأندلس، وشاركت في صد حروب الاسترداد وأوقفت عدوان الفرنجة، وزحفت نحو وسط وجنوب القارة الأفريقية، في السنغال وغانا وغيرهما(١). حيث نشرت الإسلام واللغة العربية، وجمعت لأكثر من نصف قرن بين المغرب والأندلس في دولة واحدة بزعامة مراكش(٢) وقد انتشرت حركات المرابطين هؤلاء انتشاراًبعيد المدى في القرن الخامس الهجرى،(٣) وعندما مات المؤسس الحقيق لدولة المرابطين في المغرب والأندلس يوسف بن تاشفين على رأس المائة الخامسة بعد حياة حافلة.امتدت قرناً

---

(١) انظر موسوعة التاريخ الاسلامى جـ٦ الدكتور احمد شلبى ص ١١٤، ١٦٧، ١٦٩ وغيرهما

(٢) انظر الاسلام والثقافة العربية في افريقية للدكتور حسن محمود جـ١ ص ١٧٨ دار النهضة المصرية١٩٦٣.

(٣) قيام دولة المرابطين دكتور حسن احمد محمود ص ١٣٦

كاملا، كان قد ترك وراءه امبراطورية من أعظم الإمبراطوريات التى حكمها الإسلام، تمتد فيما بين تونس شرقا والمحيط الأطلنطى غربا، وفيما بين نهر التاجة في قلب أسبانيا شمالا وبلاد السودان ونهر النيجر جنوبا[1] لكن هذه الدولة لم تلبث أن عدت عليها الأوبئة الحضارية المنتشرة، فاحتاجت إلى حركة تصحيح تمثل في الدولة الموحدية التى كان المؤسس لها. كدولة - عبد المؤمن بن على الذى نجح في توحيد المغرب، والأندلس على نحو لم تستطعه دولة المرابطين، بيد أن دولة الموحدين - بدورها - سرعان ما كثرت بداخلها الثورات، ووصل إلى حكمها خلفاء ضعاف، وعادت الأمور إلى نفس الدرب الذى يسير عليه العالم الإسلامى في هذه القرون!!

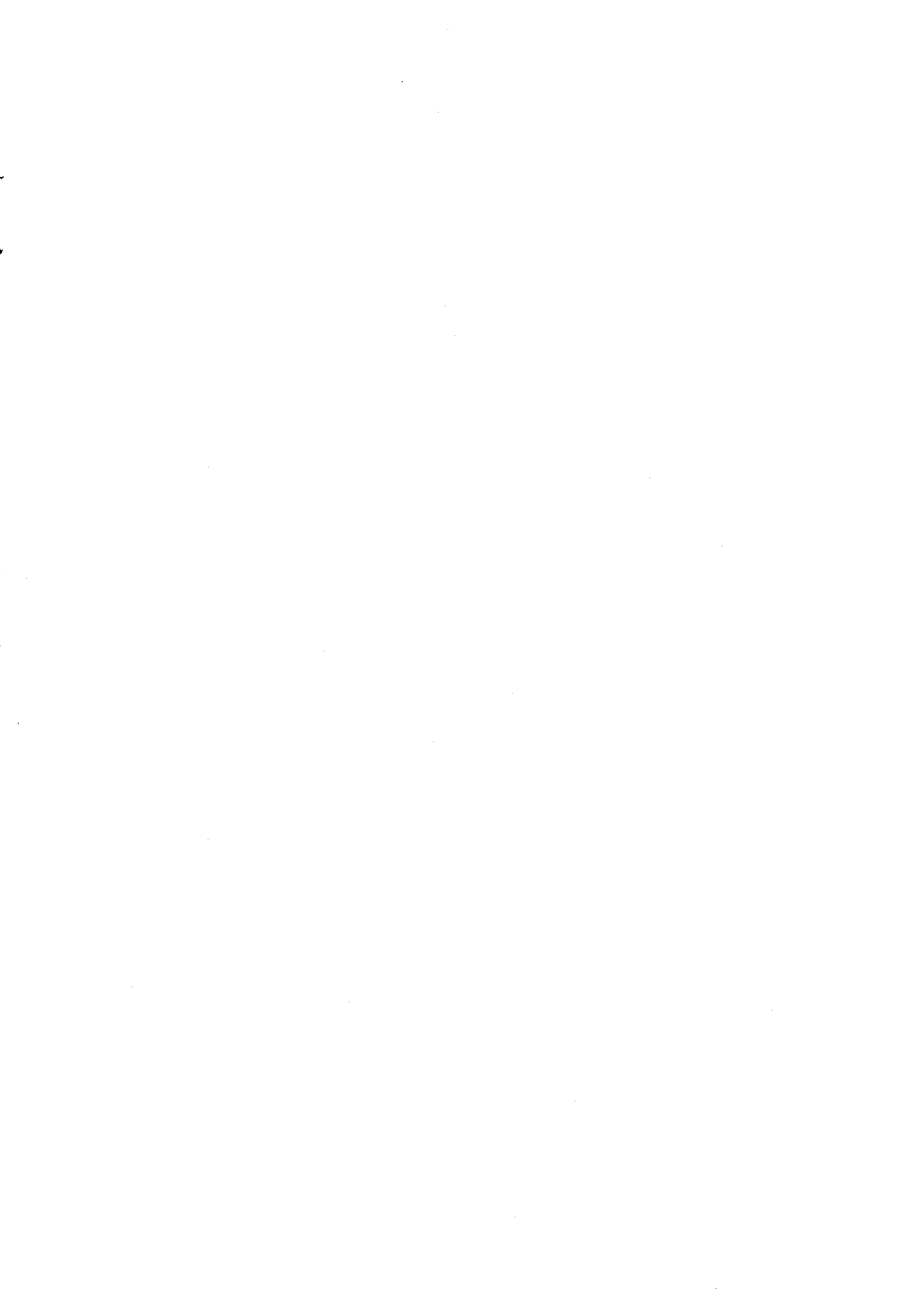
---

(١) أعمال الاعلام ٢٥٢/٣



الفصل الرابع

أبرز مواطن بنى هلال بعد التغربة
على نحو إجمالى



أبرز مواطن بنى هلال بعد التغربة على نحو إجمالى

في الحجاز ونجد

يذكر الأصمعى أن جل بنى هلال في الحجاز(١) وهى مهادهم، وذات عرق لهم(٢) وعرب الشرارات المنتسبون لهتيم والذين كانوا من القبائل الحجازية سابقا يوجد فيهم من ينتسب إلى بنى هلال، روى الشخ حمد الحقيل عن بعض أشياخهم أن بنى هلال لما رحلوا بزعامة السلطان حسن الدريد تخلف أحد جماعته لأنه كان غائبا في القنص فلما رجع ووجد آثارهم خالية وتبعهم ولم يوفق في الحصول عليهم فاستقر شمال الحجاز وتزوج امرأة من العرب أنجبت له غلاما يدعى شراراً فلما بلغ سن الشيوخة قال قصيدة يخاطب بها ابنه(٣)

قال الشيخ حمد الجاسر: وإذا كان البلاء موكلا بالمنطق فإن آخر بيت الشاعر حكم على القوم، يعنى قول الهلالى:

ترى لك قوم ورى البحر يذكرونهم   وتراك ياشرار عقبهم ما أنت خيان(٤)

و يذكر الهمدانى أن عكاظاً لبنى هلال اليوم. قال ابن خميس عن حمد الجاسر: أشار المتقدمون إلى أن هذه الجهات منازل هوازن ثم صارت لبنى

(١) المغانم المطابة ١٠٢

(٢) الحربى: طريق الحاج ٣٤٦

(٣) كنز الانساب ٢٦٠

(٤) الكنز ص ٢٠٨

هلال والظاهر أن بنى هلال حلوها وقت انتشارهم وقوتهم فى القرنين الثالث والرابع الهجريين، ثم لما هاجروا بعد ذلك إلى مصر ثم إلى بلاد المغرب عاد سكانها القدماء إليها.(١)

وحرة ليلى طرف حرة خيبر الشمالى الشرقى تعرف قديما بحرة بنى هلال فى سراة غامد. ويسكنون جلذان وادِ شرقى الطائف.(٢) قال الأصطخرى: وأماّ نواحى مكة فإن الغالب على نواحيها مما يلى المشرق بنو هلال وبنو سعد في قبائل من هذيل(٣).

وقال الفيروز آبادى عن الأصمعى: إن جل بنى هلال في الحجاز(٤) نقل الهجرى عن الأشجعى أن لهم حرة بنى هلال من أرض الحجاز(٥)

ويذكر الأصفهانى أن بنى هلال يشاركون الضباب(٦) ويذكر العلامة ابن خميس أن مرّان قاعدة رئيسية لقبيلة بنى هلال في واد كثير المياه والأشجار يجتازه طريق البصرة إلى مكة(٧) وهو على يمينك بعد المويه الجديد(٨) ويلى كشب ماءة الخوارة في بلاد بنى هلال(٩)وحضن لهم في الجاهلية والاسلام(١٠)

---

(١) الجازص ٢٤٢
(٢) السابق ٢٦٠
(٣) المسالك ص ٢٢.
(٤) المغانم المطابة ص ١٠٢
(٥) ص ٢٣١، ٢٣٣(النجد المقيامن للهجرى)
(٦) الأغانى ١٠٩
(٧) الجازص ١٩٢، ١٩٤ عن عرام
(٨) الجاز ص ١٩٢
(٩) الجاز ص ١٩٦
(١٠) الجاز ص ٢١٢ عن صحيح الأخبار

بنو هلال في جنوب الجزيرة :

ذكر فؤاد حمزة أقسام هلال: أهل البرك ـ الأخرش ـ آل مسحر ـ آل أم جمعة ولم ينسبهم لغير هلال.

وقال: تمتد ديرة بني هلال من حدود ربيعة التهم وأهل حلي ومحابل إلى قرب البرك على ساحل البحر(١)

وتابعه الحقيل في النقل بخلاف في ترتيب الأقسام إلا أنه قال: آل سيحر وآل خرخس ثم عطف بالنقل عن القلقشندى بأن بنى هلال بطن من عامر بن صعصعة(٢) وفي الجنوب قرية بنى هلال ودار بنى هلال للرهوة من غامد(٣)

[وفي الجنوب] أيضاً كانوا يعبدون مع خثعم وبجيلة صنم ذو الخلصة(٤) وفي الجنوب ـ ذكره ياقوت ـ وادى هلال من أودية السراة يصب إلى تهامة(٥) وهم معدودون من فصحاء السراة(٦)

وذكر الهمدانى «جرش» وأحوازها التى سماها كورة نجد العليا، وذكر مساكن لبنى هلال بهذه الأحواز(٧) وتبعد جرش عن خميس مشيط حوالى

(١) ص ٢١١

(٢) الكنز ص ١٧٢، ١٨٢

(٣) سراة غامد ص ٣٦،ص ٢٦٠،ص ٩٥،ص ١٣٤،١٨٤،١١٥،ص ١٤٤ وفى بلاد فارس للسوك ص ٢٤٥ وعقبة بنى هلال ١٦٨ وشقا بنى هلال ص ٢٤٥ وفى بلاد فارس للسوك ووادى بنى هلال ص ١٣٤

(٤) ص ٣٤١ سراة غامد.

(٥) السابق ٣٥٩.

(٦) السابق ٤٨٦.

(٧) صفة جزيرة العرب ٢٥٥، ٢٥٨

٣٠كم في الجنوب وقد احتلت مكانها لأنها تبعد عنها ٤٠كم في الجنوب الشرق منها في أعلى وادى بيشة(١) وذكر الهمدانى من بلاد بنى هلال باحواز جرش وادى رنية، وأبيدة ومن قراهم القريحا وقد خربت، والعبلاء والفتق وقد خربت، وذكر أن أسفل بيدة لبنى هلال.(٢)

بنو هلال في شرق الجزيرة وعمان

ذكر صاحب الاسعاف أن من بنى هلال الجبور كان لهم شأن في عمان وأنهم كانوا يشنون الغارات على عمان في العصور القديمة و يثيرون الشر بين قبائلها خصوصا أطراف البريمى والظاهرة وما حواليها.

وأن آخرهم الأمير محمد بن ناصر بن محمد بن سيف بن ناصر بن ناصر بن ناصر بن قطن بن قطن بن قطن بن على بن هلال الذى تولى قسما من ملك عمان بقيادة مطلق المطيرى أحد قواد السعوديين جاء به من الرياض أيام السلطان سعيد بن أحمد جد العائلة المالكة اليوم(٣) قلنا: هلال الذى ينتسب إليه محمد بن ناصر هو هلال بن زامل العقيلى من بنى عقيل وليس هو هلال بن عامر، والجيور الآن منسبون في بنى خالد بالحلف وقد أشار إلى ذلك ابن مشرف(٤) وسعيد بن سلطان ولى سلطنة عمان بعد قتل عمه بدر بن أحمد عام ١٢٢٠هـ وبايع لسعود بن عبد العزيز عام ١٢٢٣ فأصبحت عمان تابعة لنجد ونقض عهده سنة ١٢٢٤هـ(٥) و يذكر الحقيل أن من بنى هلال آل عبد اللطيف في الأحساء(٦) و يذكر الدكتور عبد

---

(١) انظر سراة غامد للجاسر ٤٢،٥٠ المنشور بالعربى س،م،ج٧سنة ١٣٩١هـ
(٢) انظر السابق ١٨،٢٧
(٣) الاسعاف ص ٢٩ - ٣٠ وص ٥٦
(٤) فى تاريخ الاحساء ١/٣٨
(٥) الاعلام٣/١٤٧
(٦) كنز الانساب ١٨٤

المجيد عابدين أنه تكون حلف سليم وهلال وانضم إلى القرامطة شرقي شبه الجزيرة ولم يكن لهذا الانضمام أثر في عقيدتهم. و يذكر أنهم بعد الانضمام إلى هذا الحلف كان منهم جماعة تنتشر في طريق الحج لقطع الطريق والإغارة(١)

وقد رجعنا للطبعة التى رجع إليها فوجدنا الصفحات التى أحال إليها تتعلق بطيئ ولا ذكر لبنى سليم وهلال في ذينك الموضعين ولما ذكر الدكتور((عبد المجيد)) سليما وهلالا ذكر ان بنى الأصفر لما تغلبوا على البحرين سنة ٣٧٨ باسم العباسيين طردوا منها بنى سليم مستشهداً بنص ابن خلدون الذى فيه عن العزيز: فانتزعها منهم - أي الشام - ومن القرامطة وردهم على أعقابهم إلى قرارهم بالبحرين ونقل أشياعه من العرب من بنى هلال وسليم فأنزلهم بالصعيد(٢) وليس في هذا النص مايفيد أنهم طردوا من البحرين بل النص أنهم نقلوا من الشام.

في الشام

قال ابن سعيد: وجبل بنى هلال بالشام معروف، وقد صار عربه متحضرين وأصلهم من قلعة هلال المشهورة(٣)

في مصر

قال الحمدانى: ولهم بلاد أسوان من مصر قال: وكانوا أهل بلاد الصعيد كلها إلى عيذاب.(٤)

---

(١) دراسته ص ١٢٥ ومراجعة ص ١٧٣ نقلا عن النجوم الزاهرة ١١٥/٣و١٢١

(٢) دراسات ص ١٢٦ وابن خلدون ١٣/٦

(٣) نهاية الأرب للقلقشندى ٤٤٣

(٤) نهاية الأرب للقلقشندى ٤٤٤

وذكر المقريزي بنى قرة بن عمرو بن ربيعة بن عبد مناف بن هلال من عرب مصر(١) وذكر الحمدانى أنهم يسكنون أخميم(٢) من صعيد مصر(٣) وقال: وببلاد الصعيد عدة قبائل من العرب فنى بلاد أسوان وما تحتها بنو هلال (٤) وقال المقريزى عن بنى هلال: وكانوا أهل بلاد الصعيد كلها إلى عيذاب وبساقية قلته منهم بنو عمرو وبأصفون وإسنا(٥) بنو عقبة وبنو جميلة.(٦)

ويرى الدكتور عبد المجيد أنه في عام ٧٤٩هـ نشب نزاع بين عرك - من جهينة - وبنى هلال وتدخل المماليك في هذا النزاع ومالئوا بنى هلال وقتل عدد كبير من المماليك وأمرائهم فى هذا الحادث وكان هذا إيذانا بحرب عنيفة بين المماليك والعركيين وحلفائهم(٧)وقال عبد المجيد ونحن نرى أن هذا صحيح وليس هذا دليلا على أن القتال بين هذين الحيين، وإليك نص المقريزى: وفيه - إلى عام ٧٤٩ـ قدم الخبر بقتل الأمير طغية كاشف الوجه القبلى فيا بين عرك وبنى هلال وقتل كثير من أصحابه وأخذ ما معهم وشن العرب بعد قتله الغارات على البلاد ...إلخ

فمعنى هذا النص يحتمل أن هذا الأمير قتل في الحرب التى بين الحيين، ويحتمل أنه قتل فيا بين بلادهما وليس فيه أن المماليك شايعوا بنى هلال.

---

(١) البيان ص ٢٢

(٢) قال الدكتور عبد المجيد عابدين: اخميم بلد قديم من الصعيد مشهور بين القدماء بالبرابى مازالت هذه البرابى قائمة حتى سنة ٨٨٠هـ وحين ضربها رجل من أهل اخميم يعرف بالخطيب كمال الدين بن بكر وكانت في زمن على مبارك عامرة يسكنها الأقباط بكثرة وأكثرهم أصحاب حرف البيان ص ٢٧ ح ت ٥٨

(٣) الحاشية ص ٢٢ عن النهاية ص ٢٩٧ والبيان للمقريزى ص ٢٨

(٤) البيان ص ٢٧

(٥) قال الدكتور عبد المجيد عابدين وفي النهاية ص ٢٦٥ بأسوان واسفا ولعل الصحيح أصفون بالصاد أو بالسين وهى قرية من قرى المطاعنة بمديرية اسفا في بحرها إلى الغرب بنحو عشرة آلاف متر. ص ٢٨ ح ٦٠

(٦) البيان ص ٢٨

(٧) ص ١٢٩ ومصدره السلوك للمقريزى ج ٢ ق ٣ ص ١٢٩

ومن الأقرب أن عرك خصوم المماليك قتلوا هذا الأمير بين بلادهم وبلاد بنى هلال وأنهم شنوا الغارات فيما بعد. وفي القرن الثامن انتقلت عَرَك بطن من جهينة مع جهينة إلى الصعيد الأعلى بزعامة محمد بن واصل العركى الأهدب الذى بلغ من عتوه أن كان يجلس العرب حوله ونادى بالسلطة لنفسه، فلما عظم أمره عقد أمراء المماليك المشورة في ٧٥٤هـ

في أمر عرب الصعيد وقرروا تجريد العسكر لهم فأعَّد لهم الأحدب جيشا بلغت فرسانه فقط عشرة آلاف من جهينة وغيرها وتقابلا وخلال ذلك بعث أحد أمراء المماليك ليؤمن بنى هلال اعداء عرك ويحضرهم ليقاتلوا أعداءهم فانخدعوا وركبوا بأسلحتهم في اربعمائة فارس فما إن وصلوا إلى الأمير شيخو قائد المماليك حتى أمر بأسلحتهم وخيولهم فأخذت بأسرها ووضع فيهم السيف فأفناهم جميعا(١) وأمر باسترقاق من أسر منهم وببيعه(٢) وانتهت الحرب بهزيمة نكراء للعرب. ويذكر عبد المجيد أن الأطراف القريبة من مصر منذ القرن السادس الهجرى كانت مسرحا لحركات الهلاليين وأحلافهم عقب الغزوات التى شنوها على شمالى افريقية(٣) وقد سميت باسم بنى هلال مواطن كثيرة في مصر. منها بنو هلال قرية قديمة في أعمال الشرقية، وبنو هلال بالبحيرة تابعة لمركز دمنهور، وبنو هلال بقسم سوهاج. ولما كان المقريزى يقول: إنهم سكنوا بساقية قلقة فهذا يدل على أن بنى هلال الذين بقسم سوهاج موطن من مواطنهم لأنها لا تبعد عن سامنته،(٤) وكل هذه البلاد كانت تسمى قديما بلاد أخميم.(٥)

ولم يكن يوجد أحد من بنى هلال بمصر قبل عام ١٠٩ قال المقريزى: وكان نزول سليم وعدة قبائل من قيس في أرض مصر سنة ١٠٩هـ ولم يكن

---

(١) عبد المجيد ص ١٣٠ عن السلوك ج٢ ق٣ ص ٩١٠ - ٩١١

(٢) انظر المقريزى ٢ق ٩١٢/٣ وفي هذا النص ما يلق الضوء على بعض عناصر الموالى وبنى خضير

(٣) ص ١٤٧

(٤) انظر خطط على مبارك ٩٨:٩ الخفط التوفيقية في عشرين جزءا بولاق ١٣٠٥- ١٣٠٦هـ

(٥) البيان ص ٢٨ ت ٥٩

بأرض مصر أحد من قيس قبل ذلك إلا من كان من فهم وعدوان(١) ومنذ ذلك التاريخ نزل بمصر مائة أهل بيت من بنى عامر بن صعصعة من ضمنهم بنو هلال. ثم توافدت الهجرة ومسكنهم ببلبيس ومات هشام بن عبد الملك وبلبيس ألف وخمسمائة بيت، ومات مروان بن محمد وفيها ثلاثة آلاف بيت من قيس،وفي ولاية محمد بن سعيد خمسة الآف ومائتا نفر مابين صغير وكبير(٢) وعما بعد رحيلهم من مصر قال الدكتور عبد المجيد عابدين: إن هذه الجموع الهلالية[و يضم بلك أحلافها] لم ترحل كلها إلى بلاد المغرب فقد آثر بعضهم البقاء فى مصر والأقامة بالجوف الشرق شمالا وبالصعيد الأعلى فى أقصى الجنوب ولا نعرف من الشواهد مايدل على أنهم سكنوا أيضا الصعيد الأدنى أو الأوسط ولعل اختيارهم لمنطقة الصعيد الأعلى يرجع إلى غنى هذه المنطقة فى ذلك الحين(٣) أما في الحوف الشرقى فلا تزال آثارهم شاخصة إلى يومنا هذا.

بنو هلال فى السودان

ذكر في صبح الأعشى(٤) أن سلطان البرنو(في السودان الغربى) بعث إلى سلطان المماليك في مصر يشكـــو اجتياح أعراب جزام وغيرهم بلاده وإفسادهم فيها ويطلب معاقبتهم (٥) و يستنتج(أركل) أن هذه الجماعات وبعضها قد تدفقوا شرقا حوالى سنة ٧٩٤هـ حتى بلغوا شمالى دارفور، وقضوا

---

(١) البيان ص ٦٥

(٢) البيان ٦٧-٦٨

(٣) ص ١٢٧- ١٢٨ عن عبد الحميد يونس ص ٧٠

(٤) ص ١٢٨ عن عبد الحميد ص ٧٠ عن عباس عمار

(٥) عبد المجيد ص ١٤٦عن صبح الأعشى ١١٧/٨ ط دار الكتب المصرية بالقاهرة في أربعة عشر جزءا كما في عبد المجيد ص ١٧٤

على حكم الزغاوة هناك(١) و يتوقع عابدين أن هؤلاء العرب الزاحفين من الشرق(المغرب) هم بنو هلال وأن الجند انضموا إلى حلفهم بعد إبعادهم عن مساكنهم في مصر في عهد الفاطميين والأيوبيين واستند إلى كتاب ماكمايكل(٢) وما دام بنو هلال قد سكنوا الصعيد الأعلى بمصر المجاور للسودان فمن الاحتمال القوى(٣) نزوح جماعات منهم إلى السودان فى أوقات مختلفة ولكن يبدو أن هذه الجماعات كانت قليلة متفرقة ولا سيا في شرق السودان فاندمج معظمها في جماعات أخرى وصار الانتساب إليهم قليلا محدود الأثر.

أما في غرب السودان فإن الأثر السلالى يظهر بصورة أقوى وأوضح لوجود جماعات هلالية في السودان.(٤) وإن معظم روايات غرب السودان للسيرة تكاد تتفق على أن الهلاليين وفدوا على السودان من طريق الشرق من بلاد العرب إلى كسلا ثم عبروا النيل الأبيض واتجهوا إلى غرب السودان ثم واصلوا رحلتهم إلى بلاد تونس لمحاربة المغاربة.(٥) وهذا بخلاف ما ثبت تاريخيا أنهم رحلوا من مصر للمغرب مباشرة. ثم يقول: ومن الواضح أن هذه الروايات محاكاة محلية لقصة تغريبة بنى هلال أو قل تحوير نسجته الروايات لتجعل السودان طريقا لتغريبة بنى هلال و يرى(عبد المجيد عابدين) أن معظم الجماعات التى تنتسب إلى الهلاليين أو إلى أبى زيد الهلالى يعيشون الآن في غرب السودان.

ولا يوجد في شرق السودان من ينسب لهلال غير القليل النادر فلو كانوا دخلوا من طريق الشام لكانت بقاياهم في الشرق أكثر.(٦)

(١) عابدين ص ١٤٦- ١٤٧ عن كتاب لآركل ص ١٩٩- ٢٠٠ كما في ص ١٧٣

(٢) ص ١٤٦، ١٥١ انظر عابدين ص ١٤٧، ص ١٧٥

(٣) لا سيا أن أحلافهم من قيس كسليم وفزارة لها بيوت تنتسب إليها من السودانيين الآن عابدين ص ١٥٣ عن محمد عوض ٢١٤

(٤) عابدين ص ١٥١

(٥) عابدين عن ماكمايكل ص ٢٣١- ٢٣٢ كما في مصادر عابدين ص ١٧٥

(٦) عابدين ١٥٢

ومن الراجح أن الهلاليين دخلوه بعد التغريبة بزمن غير قصير وأنهم اتخذوا طريق وادى النيل ثم انحرفوا غربا على امتداد وادى الملك إلى كردفان ثم دارفور(١)

وفى ٦/١٢/٦٨٦هـ توجه الأمير(متولى القاهرة) علم الدين سنجر الخياط المسرورى والأمير عز الدين الكورانى إلى غزو بلاد النوبة ومعه عربان الأقاليم ومنهم بنو هلال ومعهما عز الدين أيدمر السيفى فسار الخياط في البر الغربى بصف العسكر وسارِ أيدمر بالنصف الثانى من البر الشرقى وكان النصر لهم(٢)

قال عابدين: وليس ببعيد أن يكون بنو هلال قد اتخذوا طريق البر الغربى مع الفرقة الأولى ثم استقروا في غرب السودان، (٣) والحق أنه يصعب قبول هذا الرأى لأنهم جاءوا مع قائدهم أيدمر السيفى الذى سار من طريق البر الشرقى وعلى هذا يحتمل أن يكون القليل النادر من بنى هلال في شرق السودان من بقايا هذه الغزوة، وفي غرب السودان جماعات تنتسب إلى الهلاليين أو أبى زيد منهم التنجور والفور والرزيقان وهلالية البرقد والزيادية(٤).

وفي روايات دار حامد أن جدهم حامد آمين قدم إلى غرب السودان ولقى أبا زيد الهلالى فاستشاره في المكان الذى يتخذه مقاما له فأشار عليه بسكن بقعة معينة في كردفان والزيادية ينتسبون إلى اليوم إلى أبى زيد الهلالى(٥)

---

(١) عابدين ص ١٥٢

(٢) السلوك ١ق ٧٣٦/٣- ٧٣٧.

(٣) ص ١٥٢

(٤) عابدين ص ١٥٢

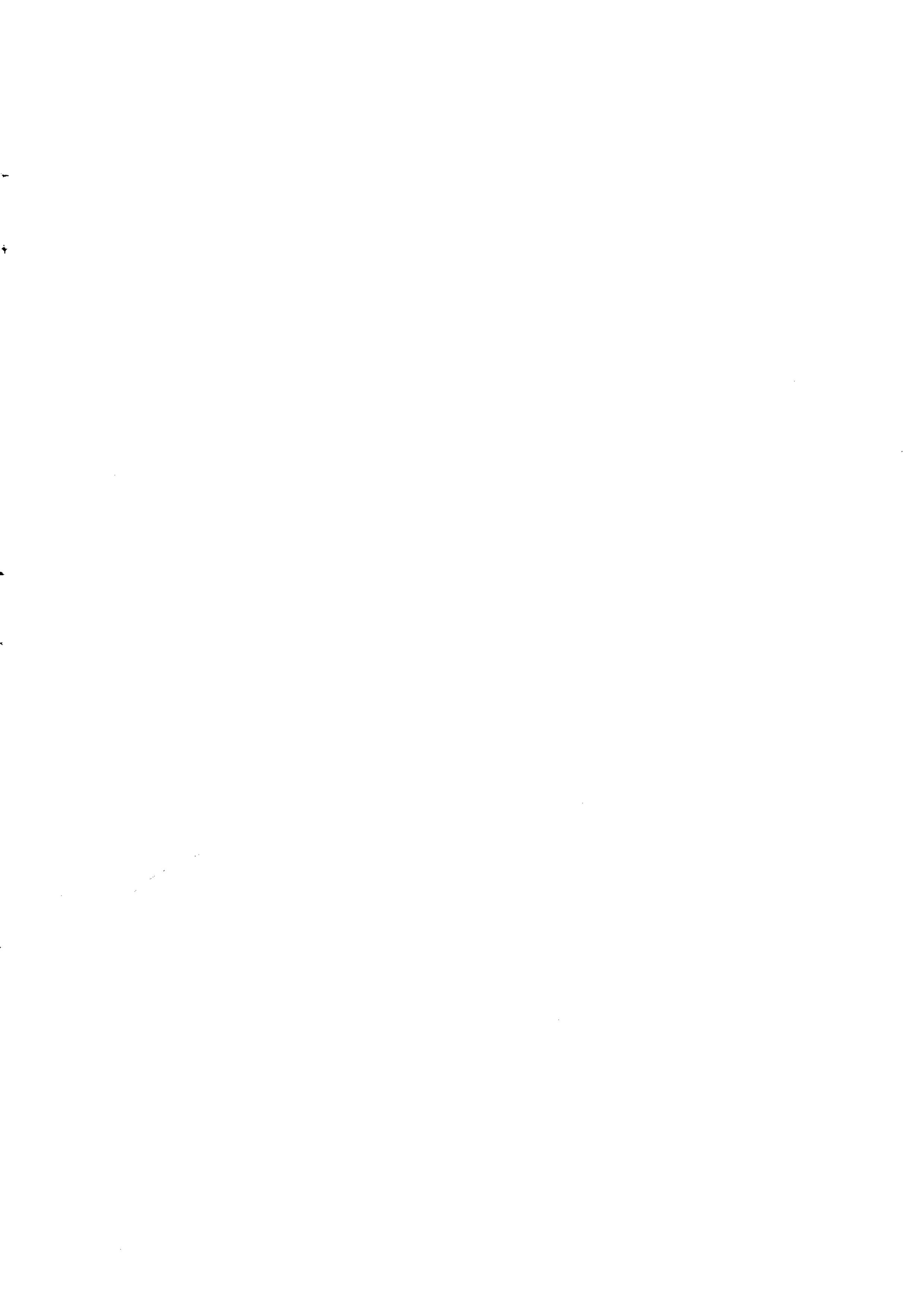
(٥) عابدين ص ١٥٣- ١٥٤ او في ص ١٥٤ — ١٨٠ قال عابدين: من روايات سمعتها أثناء زيارتى للأبيض في ديسمبر العام الماضى عام ١٩٦٠ وراجع أيضا ماكمايكل ١١٨[انظر مصادر عابدين ص ١٧٥] ومحمد عوض ٢٢٢

في المغرب

و يعد نزوح بنى هلال إلى المغرب من صعيد مصر زمن المنتصر الفاطمى هو الطور الأخير والمشهور من أطوار اغترابهم، وقد حظى هذا الطور بنصيب وافر من البحث، فيما يلى من صفحات، ونحن نكتفى هنا بمجرد الإشارة إليه اعتمادا على ما ذكر هناك.

وأخيرا

فالحقيقة أن النجوع والارتحال من خصائص بني هلال وإنه لمن العسير الزعم بأننا استقصينا كل مواطن رحلاتهم، وإنما قمنا بذكر أبرز وأشهر هذه المواطن، وهذه الرحلات.

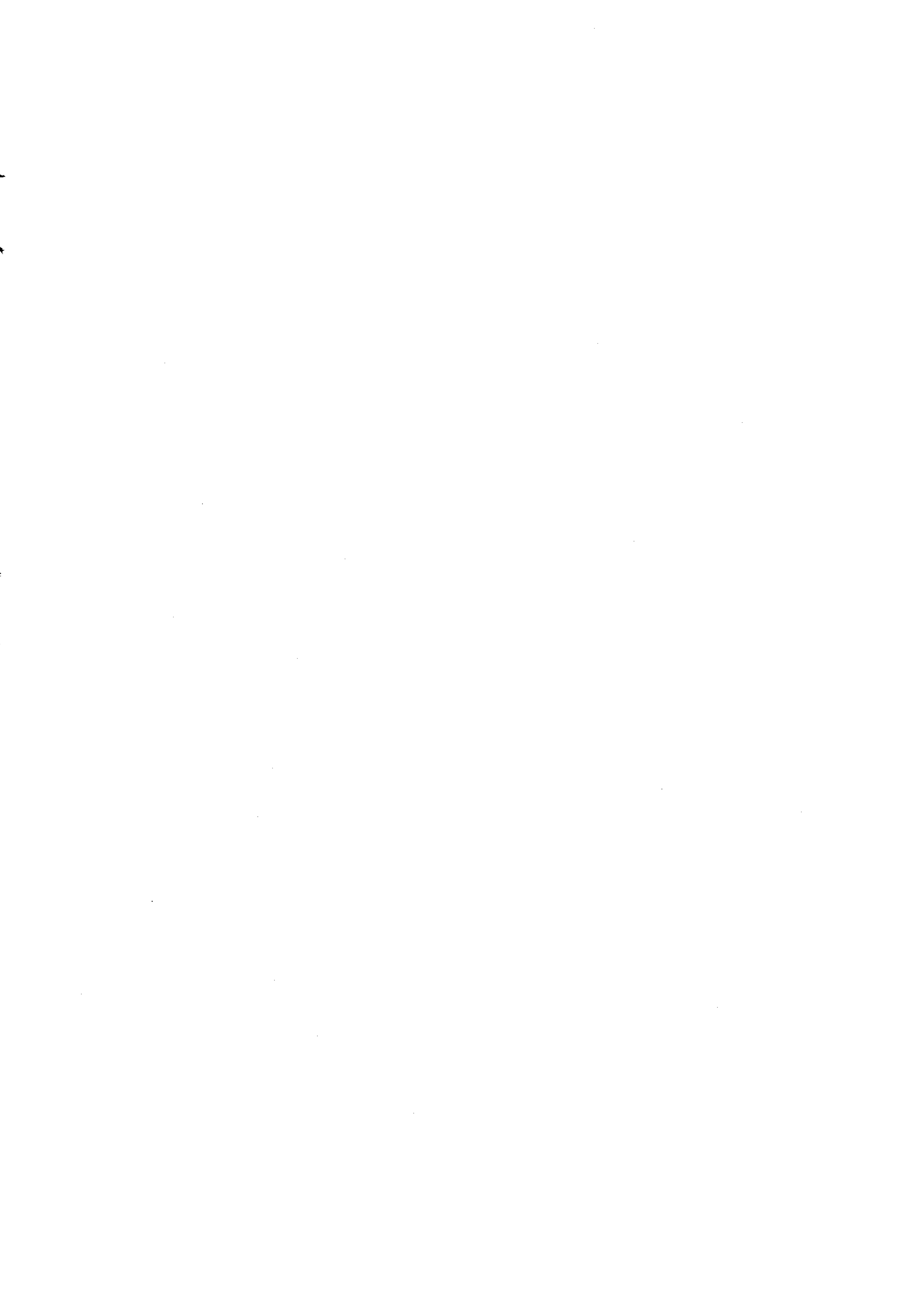


الفصل الخامس

بنو هلال في المغرب العربى

أ ــ الهلاليون وبنو زيرى

ب ــ الهلاليون وبنو حماد



أولا:

(الهلاليون وبنو زيرى)

مقدمة في التعريف ببنى زيرى ودولتهم

كان رحيل المعزّ لدين الله الفاطمى إلى مصر سنة ٣٦١هـ - بعد استيلاء قائده جوهر الصقلى عليها- هو السبب المباشر الذى أتاح لبنى زيرى الصنهاجيين الظهور على مسرح التاريخ، وولاية تونس، والجزائر أول الامر، حتى تمكن(حماد بن بلقين) من الانفصال بالجزائر، فانحصر ملك بنى زيرى في تونس بدءاً من سنة ٤٠٥هـ. وكان بلكين بن زيرى بن مناد هو مؤسس هذه الدولة، وخليفة الفاطميين عليها(١) منذ سنة ٣٦٢هـ.

وتكاد تكون فترة حكم بلكين بن زيرى(٣٦٢-٣٧٣هـ) التى لم يرفع فيها السيف عن البربر- امتداداً لحكم الفاطميين. لكن عندما مات وتولى بعده ابنه(المنصور) الملقب بأبى الفتوح بن بلكين حتى بدأ الصراع الداخلى بين البربر يدخل مرحلة البروز، حتى انتهى الأمر بظهور بعض الدويلات البربرية كدولة بنى مغراوة الزناتيين في المغرب الأقصى، ودولة بنى يفرن في سلا، ودولة بنى تجين في وانشرين وشلف حتى تلمسان، ودولة بنى توالى في فازار ومعدن عوام وقلعة المهدى.

(١) انظر أعمال الأعلام لابن الخطيب ٥٩/٣ والحلة السيراء لابن الأبار ٣٩٣/٢

ثم تطور الصراع الداخلى بين البربر حتى انقسمت دولة بنى زيرى على نفسها إلى دولتين: بنى باديس في تونس، وبنى حماد في الجزائر. وما إن مات المنصور وتولى بعده ابنه باديس بن المنصور حتى أصبح هذا الانفصال حقيقة واقعة، وتم التوصل بين باديس وعمه حماد بن بلكين الى إتفاقية الانفصال سنة ٣٩٥هـ وما كان ممكناً لمن يعرف طبيعة البربر- أن تنتهى اتفاقية الانفصال بسلام. فعلى امتداد السنوات العشر التالية استمرت الحروب بين باديس وحماد.. وكاد حماد يستسلم انهزاماً أمام باديس - بعد أن استأصل باديس شأفته - في موقعة وادى شلف بالجزائر في مستهل جمادى الأولى سنة ٤٠٦هـ(١٠١٥م) ولولا اشتغال عسكر باديس بجمع الغنائم لما نجا حماد بنفسه. وقد هرب - أمام باديس - لاجئاً إلى قلعته، وتبعثه جيوش باديس، وحاصرته في قلعته، وظل باديس محاصراً له عدة اشهر، حتى إذا لم يبق بينه وبين اقتحام القلعة إلا يوم واحد - فيما يروى المؤرخون(١) - دهم الموت باديس فجأة... وذلك لعشرين من ذى القعدة سنة ست وأربعمائة(٢) فكان ذلك إنفاذاً إلهياً لحماد...

* * * *

وبموت باديس تولى ابنه المعزّ بن باديس - الذى كان صغير السن - فاضطر لفك الحصار، والنظر في استتباب الأمور. وفي سنة ٤٠٨هـ تحرك المعز لقتال حماد، والتقى به في(٢٢ صفر ٤٠٨)، وهزمه هزيمة كبيرة، واضطر حماد للاستسلام، وطلب العفو والصلح، ورضى المعزّ أن يقره حاكما على الجزائر، ضمن السيادة الزيرية!!

وقد ظل المعزّ يحكم الدولة الزيرية، مدة طويلة، وخلالها أعلن خلع الدعوة الشيعية، وأرسل إليه المنتصر الفاطمى قبائل بنى هلال سنة ٤٣٩هـ،

---

(١) البيان المغرب لابن عذارى ٣٧٩/١ والكامل لابن الأثير ٢٥٥/٩

(٢) أعمال الأعلام ٧٢/٣ والعبر لابن خلدون ٣٥١/٦.

وتمكنت هذه القبائل من تخريب عاصمته القيروان، فاضطر للانتقال إلى المهدية، والانزواء عن الحكم، وترك الأمور لابنه تميم، حتى قدر للمعزّ أن يتوفى سنة ٤٥٤هـ - فانفرد تميم بالأمور، وقد بدأ تميم-في كفاءة وشجاعة-يحاول استرداد بعض أرض الدولة من الأعراب، واسترداد هيبتها، ونجح في ذلك إلى حد كبير. وقد ساعده على ذلك ماتمتّع به من طول العيش، فإن تميم بن المعز قد عاش إلى نهاية القرن الخامس الهجرى، وبالتحديد سنة ٥٠١هـ وقد ولى بعده ابنه يحيى بن تميم الذى حكم إلى سنة ٥١٥هـ. ثم كان نهاية دولة بنى زيرى أيام الحسن بن على، الذى سقطت تونس في عهده بيد النورمان سنة ٥٤٣هـ حتى ظهر عبد المؤمن بن على الموحدى، فأعادها من النورمان إلى حظيرة الإسلام، تحت حكم الدولة الموحدية، وذلك في منتصف القرن السادس الهجرى.

والملاحظ أن الأمراء بعد تميم لم يكونوا في مستواه ولا مستوى أبيه المعزّ، وقد تكاثرت عليهم المشكلات، فباستثناء بنى هلال - بيت القصيد في بحثنا- كان لبنى حماد معارك مستمرة معهم، كما أن المرابطين.. ثم النورمان.. لم يتركوهم، حتى ظهر الموحدون، فورثوا الدولة، وطووا صفحتها إلى الأبد.

دخول الأعراب القيروان سنة ٤٤٣هـ

ما كاد المعز بن باديس يعلن استقلاله في عام ٤٤١هـ ويقطع الدعوة عن الفاطميين حتى فكرت الخلافة الفاطمية بمصر في الانتقام منه. ولكن كيف يتم لها ذلك؟ والمسافة بينها وبين المعزّ شاسعة وظروف الدولة الفاطمية لا تمكنها من إعداد جيش تسيره ليستولى على البلاد ويطرد أميرها ويؤدب الثائرين والذين اعتدوا على الشيعة. كما أنها لايمكنها السكوت على إهانات المعزّ للمشارقة وأشياعهم، وبعد التفكير في طريقة لإنقاذ سمعة الدولة أشار الوزير(أبو محمد الحسن بن على اليازورى) على الخليفة المنتصر

الفاطمى بأن يستعين بقبائل العرب الذين استقروا في صعيد مصر في محاربة بنى باديس الخارجين على سلطان الدولة وردهم إلى حظيرتها(١) فاقتنع الخليفة بهذه الوسيلة السهلة التى لا تكلف الدولة خسائر كبيرة ولا كثيرا من العناء والمشقة، بل إنها ستريحها من ضرر هؤلاء الأعراب الذين كثر عبثهم وانتشر فسادهم فأحرقوا البلاد وعم الدولة شرهم.

ولكن كيف قدم هؤلاء الأعراب إلى مصر؟ وما الأسباب التى أدت إلى دخولهم إفريقية؟ ومن الذى أشار بذلك؟(١).

وأصل هذه القبائل(بنى هلال وبنى سليم) من مصر، وكانوا على بداوتهم منذ قيام الدولة ثم رحلوا إلى الحجاز فنزل بنو سليم مما يلى المدينة ونزل بنو هلال في جبل غزوان عند الطائف. وكانوا يطرقون العراق والشام باعداد كبيرة فيغيرون على أطراف البلاد، ويفسدون العمران ويقطعون السابلة، وكان بنو سليم يغيرون على مكة والمدينة في موسم الحج ولم تستطع الخلافة العباسية أن تضع حدا لعبثهم وفسادهم. فلما ظهر القرامطة انضم اليهم بنو سليم في جملةماانضم من بنى ربيعة والتحقوا بخدمتهم ودخلوا في جيوشهم في البحرين وعمان ووفدوا معهم إلى الشام. فلما انتصر المعز لدين الله الفاطمى وابنه العزيز بالله عليهم نقل أشياعهم من عـــرب بني هلال وبنى سليم إلى مصر وأنزلهم في العدوة الشرقية من النيل، فاستقروا في صعيد مصر ينشرون الفساد والدمار.

وعندما نقض المعز بن باديس طاعة الفاطميين وحوّلها إلى بنى العباس أشارالوزير أبو محمد الحسن بن على اليازورى على الخليفة المستنصر باصطناعهم والتقدم لمشايخهم وتوليتهم أعمال افريقية نيابة عن الفاطميين، ودفعهم إلى محاربة بنى باديس، فإذا ما انتصروا أصبحوا أعوانا للدولة وعمالا

---

(١) انظر بنو باديس وحضارتهم/للسيد داود/ رسالة ماجستير بدار العلوم ص ٦٣

بتلك البلاد وإذا هزموا فإنه بذلك يتخلص من عنصر مدمر في مصر دون أن يتكلف أى مشقة في محاربتهم أو محاربة بنى باديس واقتنع الخليفة بوجاهة هذا الرأى وكان يتحرق شوقا إلى الانتقام من بنى باديس المارقين.

فأحضر اليازورى مكين الدولة أبا على الحسن بن على بن ملهم بن دينار العقيلى أمير أمراء الدولة الفاطمية. وكان معروفاً بكياسته وحسن رأيه، وسيَّره إلى زغبة ورياح من بطون هلال، فحمل معه هدايا قيمة وجوائز سنية لأمراء الأعراب، وقضى على ماكان بينهم من خلاف وشجار، وتحملت الدولة الفاطمية ديات القتلى من الطرفين فلما تم لليازورى ذلك وصل عامتهم بعير ودينار لكل فرد منهم، وأباح لهم إجازة النيل، وكان لايسمح لهم بذلك وقال لهم: «قد أعطيتكم المغرب وملك بنى باديس بن بلكين الصنهاجى العبد الآبق فلا تفترقون» ثم كتب إلى المعز: «أما بعد، فقد أنفذنا إليكم خيولا فحولا وأرسلنا عليها رجالا كهولا ليقضى الله أمرا كان مفعولا[1]»

نتائج غزو العرب على بنى زيرى

يقول صاحب كتاب حضارة العرب: لايمكن أن نقدر طبيعة تأثير العرب بإفريقية إلا اذا تذكرنا أن لفتوحهم دورين مختلفين كل الاختلاف وأن لهذين الدورين نتائج (اثنوغرافية) مختلفة كثيراً... فالدور الأول هو دور الفتوح الأولى التى تمت من القرن السابع من الميلاد ولم تخرج عن كونها احتلالاً عسكريا محدودا جداً. ولو اقتصر العرب في إفريقية على ذلك الاحتلال لاستغرقتهم جموع البربر في بضعة أجيال كما حدث لهم في مصر ولكان أثرهم في التمدن لا في الدم..

(١) انظر بنو باديس وحضارتهم/للسيد داود/رسالة ماجستر بدار العلوم ص ٦٣

بيد أنه كان للغارة العظيمة التى شنها العرب شأن آخر، فلما حشر العرب جموعا كثيرة في إفريقية حولوا في إفريقية فريقاً كبيراً من البربر الى عرب. وتدفّق العرب كالسيل في إفريقية من أواسط القرن الحادى عشر الميلادى(الخامس الهجرى) كان بمثابة غارة أمة لا غارة عسكرية ففرض العرب بفضل كثرتهم على البربر عاداتهم ودينهم ولغتهم. وإذا تتبعنا نتائج هذه الغزوة الثانية أو نتائج غزو العرب الهلالية للمغرب نجدها مخيبة لآمال من فكروا فيها. فقد كان هدفهم الأساسيّ هو استرداد افريقية وجعل العرب نواباً عنهم في حكم بلاد المغرب، وذلك ما يؤكده قول ابن خلدون: فأشار الوزير أبو محمد الحسن بن على اليازورى باصطناعهم والتقدم لمشايخهم وتوليتهم أعمال افريقية وتقليدهم أمرها(ومحاربة) صنهاجة ليكونوا عند نصر الشيعة والسبب في الدفاع عن الدولة(١) فهل تحَقق ذلك؟

أولا

ان الذى حدث شئ اخر يختلف عن ذلك تمام الاختلاف وهو تخريب إفريقية وتقسيمها إلى دويلات للطوائف وانحسار ملك بنى باديس إلى الساحل الذى يمتد من المهدية وما يليها إلى قابس، وذلك بسبب ضغط العرب على المدن والقرى الداخلية.

ثانيا

بالرغم من هزيمة العرب للمعز بن باديس إلا أنهم لم يستطيعوا أن يعيدوا سلطة الفاطميين على البلاد ولم يقوموا بالحكم نيابة عنهم بل أصبحوا بعد فترة عمالاً مأجورين لدى أمراء إفريقية، ولا سيا عند بنى باديس.

---

(١) انظر السيد داود/رسالة ماجستير بدار العلوم بنو باديس وحضارتهم ص ٧٨

ثالثا

هدم هؤلاء الأعراب العمران وأتوا على معالم الحضارة بإفريقية من زراعة وتجارة ومنشآت، فخربت صبره والقيروان وغيرهما واكتسحت كل بلاد إفريقية موجةٌ عاتية من الدمار تركت البلاد قاعاً صفصفاً. ولم يستطع هؤلاء الأعراب إعادة بنائها ونتيجة لذلك تفرق الناس من الأمصار واضطربت أحوال أفريقية السياسية والاقتصادية.

رابعا

كان من نتيجة غزو العرب للمغرب قيام الثورات البربرية التى تهدف إلى الاستقلال فانقسمت البلاد إلى دول للطوائف بتأثير العرب، فاستولى بنو هلال على المناطق الممتدة في الداخل من قابس إلى الغرب، واستقل حمو بن مليل البرغواطى بصفاقس، وبنو خراسان بتونس، وموسى بن يحيى بقابس، واستقل حاكم قفصة الزيرى بها، واستقر بنو حماد في بجاية، وبقى بنو باديس يحتفظون بالمهدية وما يليها وصار ينطبق عليهم قول الشاعر:

وتفرقوا شيعا فكل قبيلة　　فيها أمير المؤمنين ومنبر

خامسا

بالرغم من المضار العديدة والمساوئ الكثيرة بإفريقية من جراء الغزو الهلالى لها في سنة ٤٤٣هـ إلا أنه كان لهذا الغزو اثر كبير وفضل لاينكر في تعريب البلاد!!

فقد كان تدفق العرب كالسيل على إفريقية في أواسط القرن الحادى

عشر(الخامس الهجرى) أى في وقت كان البربر قد استردوا فيه استقلالهم تقريبا، فقد ظعن أولئك العرب رجالاً ونساءً عن مصر، واختلطوا بالسكان رويدا رويدا وزاد عددهم شيئا فشيئا، وفرضوا على البربر بفضل كثرتهم عاداتهم ولغتهم بعد بضعة أجيال واندمج العرب والبربر في جنس واحد فخفت اللهجات المحلية البربرية وحلت محلها اللغة العربية ولو لم يكن لهذا الغزو من أثر حسن غير تعريب البلاد ونشر اللغة العربية والثقافة الإسلامية في إفريقية(١) لكفى!!

* * *

لكن يبقى أن تخريب حضارة القيروان، واحد من أكبر الآثار التى نسبت لبنى هلال، فالمعروف أنه بعد رحيل المعزّ بن باديس إلى المهدية وجعلها حاضرة ملكه استولى الأعراب على القيروان في رمضان من نفس العام ٤٤٩هـ وانطلقت أيديهم ومن انضم اليهم من بطانة السوء فعاثوا فيها فسادا وتخريباً ونهباً حتى أصبحت حاضرتها الزاهرة أثرا بعد عين.

وانتهبوا قصور بنى باديس، وارسلوا بعض سلبها إلى القاهرة لتكون عظة وعبرة لغيرها من الأمصار، ويقول المقريزى. ووصل كثير مما نهب من قصور بنى باديس من الأسلحة والعدد والآلات والخيام وغيرها إلى القاهرة. فكان ليوم دخولها إلى القاهرة أمر عظيم من اجتماع الناس واعتبار أهل البصائر بتقلب الأحوال.

ونشر هؤلاء الأعراب الرعب والفزع بين جميع أهل القيروان فخشوا على أنفسهم وتفرقوا في الأمصار. ويذكر ابن عذارى صورة لوحشية هؤلاء الأعراب وتعديهم على ممتلكات أهل القيروان فيقول: وذكر أبو عبيد أنه انتهى ما ذبح بها من البقر خاصة في اليوم الواحد سبعمائة رأس وخمسين

---

(١) انظر المكان السابق

رأسا» فإلى هؤلاء الأعراب يرجع ما حل بالقيروان وإفريقية من تخريب ونهب وتشريد.(١)

على أن طبيعة الأمور توجب أن تحاول دولة(بنى زيرى) في تونس - أن تتصدى لهذا الغزو المدمر الذى لحق بها. وكان انتقال المعزّ بن باديس للمهدية، بعد تخريب القيروان، خطوة أريد بها أن يوجد مركز مقاومة جديد للغزو الهلالى. ولئن كان(ابن باديس) في حاجة إلى وقت كي يلتقط انفاسه، ويعيد تنظيم صفوفه، فإن النخوة قد تحركت في القبائل البربرية الأخرى، ضد الغزو الهلالى، الذى يهدد الجميع. وقد أثيرت القبائل البربرية -غير صنهاجة - للدفاع عن أرضهم وبلدهم، ووقعت بينهم وبين الهلاليين وأتباعهم حروب طاحنة. يقول ابن خلدون: «ثم حارَبُوا زناتة من بعد صنهاجة وغلبوهم على الضواحى واتصلت الفتنة بينهم». ولم تقتصر المقاومة على زناتة بل شاركتها في ذلك هوارة ودخلت مع العرب في حروب قاسية يذكرها ابن عذارى في أحداث سنة ٤٥٢هـ، ويقول: إنَّ النصر كان من نصيب العرب الذين قتلوا هوارة بباب الصوم أحد ابواب القيروان. ولم يكن القضاء على روح المقاومة عند الشعب البربرى سهلاً، فقد كلف ذلك العرب كثيراً من الأرواح، وأطاح بأعداد كبيرة من البربر، فى سنة ٤٥٠هـ خرج بلكين بن محمد ومعه من العرب قبائل الأثبج وعدى لحرب زناتة فكسرها وقتل منها عددا كثيرا...

ومع هذا الإرهاب الذى فرضه العرب على أفريقية وقبائلهم وتخريبهم العمران وافساد الطرق وضربهم بيد من حديد على كل روح المقاومة والثورة، يذكر المؤرخون في أحداث سنة ٤٥٣هـ أن أهل (تقيوس) قد قتلوا من العرب مائتين وخمسين رجلا بسبب خلاف نشأ في السوق بين انسان عربى

(١) انظر سيد داود/ بنو باديس وحضارتهم(مخطوط ماجستير بدار العلوم)ص ٧٤

وآخر بربرى كان يثنى على المعزّ بن باديس، و يدعو له فقتله الأعرابى فثار أهل البلد على العرب وقتلوا منهم العدد المذكور !!.

ونتيجة لهذا السخط الأفريقى على الأعراب الوافدين وانتشار المقاومة لهم في كل مكان خربت إفريقية ، وطمع كل أمير من أمراء العرب فيما تحت يده، واستولى على مااشترطه لنفسه . فقد جاء في اتعاظ الحنفا: «وكان المستنصر لما بعثهم إلى إفريقية جعل(لمؤنس بن يحى) المرادسى ولاية القيروان وباجه، وأعطى زغبة طرابلس وقابس، وجعل الحسن بن مرة في ولاية قسنطينة، فلما غلبوا صنهاجة ملك كل منهم ماعقد عليه فاشتد عبثهم وإفسادهم (١)

وهذه هى - بإيجاز- مسيرة الهلاليين أصحاب التغربة- مع دولة بنى زيرى في تونس .

وإنها لمسيرة - كما نرى - محفوفة بالمكاره، مليئة بالمآسى حافلة بألوان الصراع.

لكن ذلك كله لم يحل دون أن تكون هناك آثار حضارية بقيت - من خلف مسيرة الدم - تؤدى دورها في تعريب المغرب، وفي التحامه اللسانىّ والعرقى بالشعب العربى، وهو أثر من آثار ذلك الالتقاء الدامى بين بنى زيرى وبنى هلال أصحاب التغربة.

(١) المخطوط السابق ص ٧٦

الهلاليون وبنو حماد

ثانيا:

مقدمة فى التعريف بدولة بنى حماد

استمر عمر الدولة الحمادية مايقرب من قرن ونصف القرن منذ توطن حماد في القلعة، وعقد مع المعز اتفاقاً المعنا إليه عند حديثنا عن الدولة الزيرية وقد سقطت الدولة سنة ٥٤٧هـ على يد عبد المؤمن بن على الموحدي.

وقد حكم الدولة الحمادية الجزائرية تسعة أمراء اختلفوا قوة وأسلوب حكم. وكان حماد بن بلكين - هو مؤسس الدولة سنة ٤٠٨هـ - ثم خلفته ذريته من بعده إلى أن جاء آخر أمراء الدولة وهو يحى بن العزيز الحمادى (٥١٥-٥٤٧هـ)وكان تاسع وآخر أمراء هذه الدولة.

ويمكننا أن نقسم حياة الدولة الحمادية إلى ثلاثة أدوار:

* الدور الأول يمكن أن يطلق عليه: مرحلة تأسيس الدولة، ومن البديهى أن حماد بن بلكين يتحمل أكبر قسط فى مرحلة التأسيس هذه ويأتى بعده في هذه المرحلة ثلاثة من أمراء الدولة وهم :

١ ــ القائد بن حماد (٤١٩-٤٤٦هـ).
٢ ــ محسن بن القائد (٤٤٦-٤٤٧هـ).
٣ ــ بلكين بن محمد بن حماد (٤٤٧-٤٥٤هـ).

أما الدور الثانى، فيمكننا أن نطلق عليه(مرحلة الازدهار) وهى المرحلة التى تمتعت فيها الدولة بلون من الاستقرار والثبات، وقلت فيها حروبها مع

جيرانها من البربر ولا سيا أبناء عمومتها من بني زيرى.

وقد حكم في هذا الدور الحضارى أربعة من أمراء الدولة الحمادية وهم:.

١ـ الناصر بن علناس (٤٥٤-٤٨١هـ).

٢ـ المنصور بن الناصر (٤٨١-٤٩٨هـ).

٣ ــ باديس بن المنصور (٤٩٨-٥٠٠هـ).

٤ ــ العزيز بن المنصور(٥٠٠-٥١٥هـ).

وقد تألق الناصر والمنصور، وازدهرت الدولة الحمادية في عهدهما أيما ازدهار، وبنيت في عهدهما العاصمة الجديدة للدولة«بجاية» التى خلفت القلعة....

أما باديس، فلم يطل العمر به كثيرا. بينما كان العزيز امتداداً للناصر والمنصور، وإن كان قد اشتهر في التاريخ أكثر منه، لدرجة أنهما اعتبرا ـ دونه ـ الممثلين للدور الحضارى المزدهر في عمر الدولة الحمادية الجزائرية، مع أن العزيز ـ في حقيقة الأمر ـ لايقل عنهما أثراً وتحضيرا.

وبوفاته سنة ٥١٥هـ، وتولى ابنه يحي مقاليد الأمور ـ دخلت الدولة الحمادية، في دور الأفول والقابلية للسقوط.

وقد تجمعت عوامل كثيرة من أبرزها:

١ ــ سلوك يحى نفسه.

٢ ــ ظهور الموحدين في المغرب كقوة عظمى.

٣ ــ وأخيرا ويصلح أولا كذلك ـ المناوشات والصراعات المستمرة بين بني حماد وبني زيرى.... ثم بين بني حماد وقبائل بني هلال أصحاب

التغربة... مماجعل الدولة تنفق كثيرا من طاقتها في غير طائل، حتى سقطت على يد الموحدين سنة ٥٤٧هـ، وطويت صفحتها على أيدى الموحدين، كما طويت صفحة بنى زيرى على أيديهم أيضا.

الحماديون والقبائل العربية:

كان دخول الهلاليين وإخوانهم إلى أرض المغرب حدثا ضخما ترك آثاره على تكوين المغرب الحضارى كله، ولقد كان السبب المباشر لهذا الغزو خروج المعز بن باديس على الخليفة المستنصر الفاطمى، وقطعه الخطبة للفاطميين، ولعنه الفاطميين على المنابر، فضلا عن إغراء العامة بأتباعهم، وخلافه مع وزير المستنصر المعروف باليازورى، وقد انتهى الدكتور حسن محمود إلى أن سبّ المعز للفاطميين على المنابر كان سنة٤٤٠هـ(١٠٤٨م) ثم كان ضرب السكة باسمه بعد ذلك (١) ونستطيع أن نطمئن إلى أن سنة ٤٤٢هـ، وهى السنة التى ذكرها ابن الأثير، هى تاريخ زحف القبائل على المغرب(٢)

وقد اختلف المؤرخون في تقدير عددهم، فذهب بعضهم إلى أن عددهم كان يزيد على المليون ، وهو تقدير مبالغ فيه ، وقد ذهب بعضهم إلى أن عددهم يتراوح بين مائتى ألف ونصف مليون(٣) ولعله التقدير الأقرب إلى الصواب.

ومن المؤكد أن هذه القبائل لم تصل إلى مشارف الجزائر إلا بعد عدة سنوات من زحفها على إفريقية(تونس)؛ ذلك لأنهم وقفوا عند مملكة

---

(١) بنو زيرى وسياستهم الداخلية ٢٧٩(نقلا عن الهلالية في التاريخ والأدب الشعبى دكتور عبدالحميد يونس ص ٦٥)

(٢) الكامل ٥٦٦/٩ وتاريخ الجحزائر ٤٨/٢ للهلالى الميلى

(٣) انظر موجز التاريخ العام للجزائر الكعاك ٣٠٤،وحضارة العرب لوبون ٣١٦

الزيريين هذه السنوات إلى أن انتصروا انتصارهم الحاسم على المعزّفى معركة«حيدران» بين قابس وصفاقس، وتم تخريب القيروان(١) ووجدوا الطريق مفتوحا إلى جزائر بنى حماد، فتقدموا في مطلع النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى،لكن لم يحدث زحف تدميرى شامل كما حدث للزيريين إلا بعد موقعة(سبيبة)التى كانت أكبر أخطاء الناصر بن علناس سنة ٤٥٧هـ(٢).

ويمكن القول بصفة عامة بأن ضرر الزحف الهلالى بالجزائر كان أقل من ضرره على تونس وطرابلس؛ لأن الجزائر لم تكن المقصودة بهذه الحملة، ولم تطل بها مدة الحرب (٣).

والحق أن سياسة الحماديين نحو القبائل العربية، هى سياسة ناجحة إلى حد بعيد، وأثبتت الأحداث أنها أفضل من سياسة أبناء عمومتهم بنى زيرى الذين يتحملون قسطا كبيرا من نتائج هذه الحملة التى غالى فيها الكثيرون(٤).

لقد استطاع الحماديون-على وجه العموم-ترويض هذه القبائل، لدرجة استغلالهم في حروبهم ضد بنى زيرى ، وضد زناتة، وعن طريقهم حصل الحماديون على مدن زيرية-كما ذكرنا-واستعملوهم في قتال المرابطين، وقد استعملوا معهم السياسة الوحيدة الناجحة مع العرب، وهى سياسة التفريق فالثوا بعضهم على بعض، لدرجة جعلت العرب يحسون بولاء عظيم لدولة الحماديين كما ظهر من ثوراتهم ضد الموحدين بعد سقوط بجاية(٥).

---

(١) أعمال الاعلام ٣/٧٥

(٢) تاريخ الجزائر للجيلالى ٢/١٥٢ — La Berberie muslumane et L'orient au moyen - age p: 199.

(٣) تاريخ الجزائر للجيلالى ٢/ ١٥٣

(٤) راجع ماذكره ابن خلدون٦/٣٥٧،٣٥٨،٣٦٢ وراجع تاريخ التمدن الاسلامى في جورجى زيدان الجزء الرابع ٥٣ وهامش الدكتور حسين مؤنس في نفس الصفحة وتاريخ الجزائر للجيلالى ١/٣٤٢ والكعاك موجز التاريخ العام ص٢٠ وانظر مناقشة دلك في التاريخ الهلالى تاريخ الجزائر والمغرب العربى لبونار١٩٩

(٥) انظر مجموع رسائل موحدية الرسالة التي سعة ص ٢٨

ولا يُغير من طابع هذه السياسة العامة حدوث بعض المعارك بين الحماديين والعرب فإن هذه المعارك تنتمي إلى الطابع الذى سيطر على هذه القبائل العربية بفروعها المختلفة بعد انتصارهم واكتساحهم الأمصار المغربية، وهو طابع الفوضى والارتزاق والانقسام(١) ولعل هذا الطابع هو الذى جعلهم - مع تغلبهم على صنهاجة الزيرية - لايؤسسون ملكا ولا يشيدون دولة(٢).

ولقد بقى بنو حماد بالجزائر محتفظين بقوتهم، معتدين بانتظام شملهم وقد انتفعوا عرضا بهزيمة بنى زيرى حيث تقوى نفوذهم في المناطق المجاورة لهم، وصارت القلعة - ثم بجاية - وريثة لأمجاد القيروان (٣).

* *

إن أخطار بنى هلال بدأت تقرع أبواب الجزائر منذ عهد الناصر بن علناس، أو قبله بقليل. والواضح أن الناصر، قد وضع استراتيجية واضحة هى محاولة جعل علاقته ببنى هلال علاقة طيبة مسالمة تفادياً لأخطارهم التى رآها على بنى زيرى رأى العين !!ولقد بقى أمام الناصر بن علناس أن يحدد علاقته بالزيريين أبناء عمومته في تونس والمهدية، والذى تشير إليه الأحداث أن الناصر لم يوفق أول عهده في وضع أسس علاقة متينة تربطه بأبناء عمه، لاسيا وأن ظروفهم كانت تستدعى منه مثل هذا العمل، بل إنه وضع أمله الأكبر لتوسيع مملكته في سقوط مملكة القيروان، وقد كان بإمكانه التعاون مع ابناء عمومته على ترويض أو مواجهة القبائل العربية التى دمرت حضارة القيروان، وقد قدر للناصر أن يدفع ثمن خطئه هذا في موقعة سبيبة التى جره العرب إليها ضدّ ابن عمه تميم الذى خلف والده المعزّ في المهدية سنة ٤٥٥هـ -١٠٦٣م، بعد أن غلبه العرب على إفريقية، ولم يبق له إلا

---

(١) انظر الهلالية في التاريخ والأدب الشعبى د/ عبد الحميد يونس ٦٤

(٢) المرجع السابق ٧٤

(٣) المغرب العربى لبونار ١٩٨

ماضمه السور(١) بين أمور معتلة وبين داء الهرم الذى يسرى في دولته ويضعف من قواه(٢)

لم يعمل الناصر على خلق مثل هذا التعاون في بداية عهده، بل إنه أخذ يقع في تميم في مجالسة ويذمه(٣) ووصل الأمر بينهما إلى الالتقاء في موقعة سبيبة سنة ٤٥٧هـ (١٠٦٤م).

ونحن نجد عدة آراء في تعليل هذا اللقاء العدائى بين فرعى بنى زيرى، فابن الأثير والنويرى يوقعان التبعة كلها على الناصر، سواء على مستوى-هجاء تميم، أو على مستوى عزمه على المسير إلى تميم وتحالفه مع بعض صنهاجه وزناته وبنى هلال ليعينوه على حصار المهدية(٤).

وابن خلدون على الرغم من ذهابه ضمنياً- إلى أن الناصر هو البادئ بالعداء، إلا أنه يصور الأمر على أساس أن الناصر وقع ضحية خداع القبائل العربية التي وفد عليه رجالاتها من الأثبج مستصرخين به على رياح (٥) . ويكاد يوافق هذا الاتجاه ابن عذارى المراكشى(٦)، وابن كثير(٧).

على أن ثمة رأيا ثالثا يتناقض تماما مع الرأيين السابقين يذهب إليه صاحب الاستبصار، إذ يرى أن العرب لما دخلوا إفريقية وأفسدوا القيروان وأكثر مدن إفريقية هرب منهم صاحب القيروان الصنهاجى وتحصّن بمدينة المهدية، وكان ابن عمه صاحب القلعة(المنصور بن حماد) أشد شوكة من

---

(١) العبر ٦ / ٣٢٧
(٢) اتحاف أهل الزمان ١٤٠/١
(٣) الكامل ٢٥٧/١٠، وانظر نهاية الأربس للنويرى ج ٢٢ ص ٦٦ (الجزء الثانى)
(٤) الكامل ٤٤/١٠ وما بعدها، ونهاية الارب ٦٦/٢٢(الجزء الثانى مخطوط بدار الكتب).
(٥) العبر ٣٥٥/٦
(٦) البيان المغرب ٤٢٩/١
(٧) البداية والنهاية ٩٢/١٢

صاحب القيروان، وأكثر جيشا فخرج لنصرة ابن عمه وجيش جيشا كبيرا، فلقيته العرب بجملتها بفحص سبيبة على مقربة من القيروان (١)«وهو رأى - كما نرى - يعتمد على أخطاء تاريخية كفيلة بإحباط قيمته العلمية، فإن العرب في سنة ٤٥٧هـ (١٠٦٤م) كانوا قد انتهوا تماما من كسر شوكة بنى زيرى، وكان المعز قد استسلم تاركا القيروان منذ سنة ٤٤٩هـ(١٠٥٧م) ثم مات سنة ٤٥٤هـ (١٠٦٢م) بالمهدية (٢) وكان ابنه تميم في حالة استسلام تام، وليس له من هم إلا أن يخالف بين القبائل العربية و يسلط بعضها على بعض(٣) كما أن الناصر - وليس المنصور - هو الذى جرت معه موقعة سبيبة، ولم يعرف عن بنى حماد أنهم تحركوا بدافع النخوة القبلية لحماية أبناء عمومتهم، وإلا لكنا قد رأيناهم مشتبكين في صراع دائم مع القبائل العربية، وهو الأمر الذى لم يحدث - ولقد جرت للمعزّ بن باديس - صاحب اليد الطولى - في قيام الدولة الحمادية، حوادث أليمة على يد القبائل العربية، دون أن يحرك الحماديون ساكناً،بل إن ابن الأثير يرى أن الحماديين قد استفادوا من هذه المصائب«فقد عمرت بلادهم وكثرت أموالهم، وحققوا مافي نفوسهم من الضغائن والحقود من باديس، ومن بعده من أولادهم حقدا يرثه صغير عن كبير»(٤) فليس ثمة شك - في رأينا - في أن الرأيين الأولين معاً هما التعليل الصحيح لموقعة سبيبة، فإن العرب قد سعوا بالفتن بين الناصر وتميم(٥)، مستغلين في ذلك أطماع الناصر في بلاد أبناء عمومته.

كما أن زناته قد أسهمت بدورها - في الايقاع بين فرعى زيرى على يد أبناء المعز بن زيرى بن عطية المغراوى الزناتى(٦) صاحب تلمسان وما حولها

(١) الاستبصار ١٢٨

(٢) اتحاف أهل الزمان ١/١٣٩

(٣) العبر ٦/٣٢٧

(٤) الكامل ١٠/٢٥٧

(٥) العبر ٦/٣٢٧

(٦) الكامل ١/٢٥٨، والعبر ٦/٣٥٥

- وقد ضمت هذه الموقعة كل أطراف الصراع في المغربين الأوسط والأدنى، فاشترك فيها الناصر بالرجال والسلاح واشترك فيها إلى جانبه من العرب بنو عدىّ والإثيج، وبعض زناته، كما اشترك فيها - في الجانب المقابل - تميم بالسلاح والمال، ومن العرب رياح وزغبة وسليم وبعض زناته كذلك[1]. ولقد لعبت أطراف الايقاع بين الناصر وتميم دورها في تحديد نتيجة المعركة، ضماناً لضرب القوة الكبرى الباقية في المغربين الأوسط والأدنى، بعد استسلام بنى زيرى، وبالطبع فإنه لو تم انتصار الناصر في هذه الموقعة لكانت النتائج سيئة بالنسبة للعرب ولزناتة، وقد ظهر هذا الدور السيئ حين أرسلت القبائل العربية المناوئة للناصر إلى إخوانهم الذين معه يخوفونهم منه

إن قوى «وأنه يهلكهم بمن معه من زناتة وصنهاجة، وأنهم إنما يستمر لهم المقام والاستيلاء على البلاد إذا تم الخلف وضعف السلطان، فأجابهم الآخرون إلى الموافقة، وقالوا لهم اجعلوا أول حملة تحملونها علينا فنحن ننهزم بالناس ونعود عليهم، ويكون لنا ثلث الغنيمة واستقر الأمر على ذلك »[2].

وعلى نحو قريب من هذا الدور قام أبناء المعز المغراوى بالنسبة لزناته التي مع الناصر[3] وما أن التقى الطرفان بفحص(سبيبة) غربي القيروان على نحو خمسين كيلو متر جنوب الإربس[4]من أعمال الكاف على مقربة من سوفس (Sufus) القديمة، حتى انهزم الناصر ووقع في جنده القتل، وقتل فيمن قتل أخو الناصر القاسم بن علناس - الذى كان قد نصحه بعدم الخروج مع العرب وقتل كاتبه وغنمت العرب جميع ما كان في المعسكر من مال وسلاح، ونجا

---

(١) الكامل ١ / ٢٥٩ ، والعبر ٦ / ٣٣٥ ، والبيان المغرب ١ / ٣٠٠ نهاية الارب للنويرى ص ٢٢ (الجزء الثانى)

Encyclopedia of Islam Vo: II, Part 3, P: 863.

(٢) الكامل ٢٥٨/١٠

(٣) انظر الكامل ٢٦٥٧/١٠، والعبر ٣٥٥/٦

(٤) تاريخ الجزائر العام ٣٦٩/١

الناصر في قلّ من أتباعه لايزيدون عن المائتين، فلحق بقسنطينة ثم بالقلعة(١) «وقد أرسل العرب الألوية والطبول وخيام الناصر بدوابها إلى ابن عمه تميم، فردها وقال : يقبح بى أن آخذ سلب ابن عمى»(٢) وظهر عليه من الحزن بقوة العرب مالم يوصف(٣).

وتلاحقت طوائف العرب بأحلافهم إلى الجزائر عن طريق سبيبة، فتبسة فجنوب الأوراس، وقرى الزاب، وسلكوا طريقهم مابين الأطلسين التلى والصحراوى حتى انتهوا إلى جبال البيبان وباجة وجبال بابور(٤).

لقد بلغت حال الدولة الحمادية بعد موقعة سبيبة حدا كبيرا من السوء، ولقد أصبحت بلاد الجزائر مفتوحة أمام القبائل العربية، وبدا كأن الناصر سيفقد كل شئ ، وكان عليه أن يسرع فيتخذ من الخطوات العاجلة مايعيد للدولة نظامها وهيبتها. وكان طريقه إلى ذلك أن يعيد علاقته الطيبة مع أبناء عمومته بنى زيرى، وأن يحاول الاجتهاد في تعويض مافقده في سبيبة... ولم يتوان الناصر في اللجوء إلى الطريقتين معا.

وأما عن سياسة الناصر نحو العرب فقد اتجه الناصر فيها اتجاها قريبا من سياسة تميم معهم، وهى السياسة التى تقوم على التفريق بين القبائل العربية وضرب بعضها ببعض، والحذر الشديد منها. وتعتبر السنوات التالية لموقعة سبيبة من حكم الناصر سنوات المد نحو الجانب الغربى من تونس، وكانت هذه الناحية من تونس، بالاضافة إلى الجانب الشرقى من أرض الجزائر، أرضا مباحة تعبث فيها القبائل العربية بعد أن أسلم المعزّ القيروان، وتحول إلى المهدية - كما ذكرنا - فقد اضطرمت افريقية في هذه السنوات - لاسيما بعد

---

(١) الكامل ٢٥٧/١٠، والاستبصار ١٢٨، والبيان المغرب٤٢٩/١، والصبح٣٥٥/٦

(٢) الكامل ١٠/ى٢٥٩ ونهاية الأرب للنويرى ج ٦٦/٢٢ الجزء الثانى

(٣) نهاية الأرب للنويرى٦٦/٢٢(الجزء الثانى) مخطوط

(٤) تاريخ الجزائر العام ٣٦٩/١

سبيبة ـ ناراً، واقتسمت العرب البلاد عمالات، وامتنع كثير من البلاد على ملوك آل باديس مثل أهل سوسة وصفاقس وقابس [1]، بالاضافة إلى القيروان وإلى تونس وبعض المدن والقرى الجزائرية... فكل هذه المناطق كانت قد وقعت تحت سيطرة القبائل العربية، واتجه الناصر اليها كمحاولة للتوسع، ولتحطيم حراسة هذه القبائل، وتفتيت مابينها من وحدة.

وكما ذكرنا فإن السياسة الوحيدة الناجحة مع هؤلاء العرب هى سياسة التفريق المذكور، عن طريق التحالف مع بعضها ضد البعض، ويبدو أن الناصر قد عمق صلته بقبيلة«الإثبج» العربية في هذه الآونة[2] على الرغم من موقفها في سبيبة، فقد رأينا هذه القبيلة الهلالية تظهر في كثير من المواطن إلى جانب الدولة الحمادية ... فى سنة ٤٦٠هـ(١٠٦٧م)حاصر الناصر مدينة«الإربس»(Laribus)في غرب تونس، ومعهاالإثبج من العرب، وبقي عليها حتى افتتحها، وأمَّن أهلها ، وقتل عاملها«ابن مكراز»[3]

وبمعونة هذه القبيلة التى يبدو أن مصيرها ارتبط نهائيا بالحماديين، تقوى بقوتهم، وتضعف بضعفهم ويختصها الحماديون دون سائر العرب بالرئاسة والاقطاعات، بمعونتها وصل الناصر إلى القيروان مع العرب ودخلها، ثم عاد منها إلى قلعته خوفاً من جموع العرب سنة ٤٦١هـ(١٠٦٨م) كما دخلت تونس في طاعة الحماديين طواعية، إذ وفد مشيختها على الناصر، فولى عليهم عبد الحق بن خراسان .

وتشير المراجع إلى أن ذلك كان سنة ٤٥٨هـ(١٠٦٥م).

ويقال إن بنى رياح هى التى باعته القيروان بعد طردها لزغبة وإن كان تميم في العام نفسه ـ قد سيَّر إليها عسكرا كثيفا. وأرغم ابن خراسان

---

(١) العبر/٦/٣٣٤

(٢) Encyclopedia of Islam VOL : II, Part 3 P: 863

(٣) البيان المغرب/١/٤٢٩

على الرضوخ له - ومهما يكن، فمن المؤكد أن الناصر قد نجح في لم شعته بعد سبيبة التي وقعت سنة ٤٥٧هـ(١٠٦٤م) وأنه تحالف مع الإثبيج، ومن المؤكد كذلك أن الزيريين - في المقابل - قد وصلوا إلى حالة شديدة من الضعف في هذه الفترة.

* * *

لقد سار المنصور- تبعا لوالده الناصر- وفق سياسة واضحة تجاه كل الأطراف، كما أنه استطاع استغلال القبائل العربية- وفق سياسة أبيه كذلك أحسن استغلال ملائم لطبيعة هذه القبائل في هذه الظروف، فقد صالحهم على أن يجعل لهم نصف غلة البلاد من ثمرها وبرها وغير ذلك، فأقاموا على ذلك بقية أيامه وأيام ابنه الملقب بالعزيز، وأيام يحيى.

ولقد يظن أن هذا الموقف من المنصور تجاه القبائل العربية نوع من الاستسلام والإذلال، وقد يكون ثمة جانب من صحة هذا الظن، لكن إذا رأينا الآثار التى كان يمكن لهذه القبائل إحداثها - كما فعلت مع الزيريين - وعلمنا أنها سياسة حكيمة من المنصور، مكنته من أن يكون عصره امتدادا لعصر الازدهار الحضارى الذى بدأه أبوه، فضلا عن وجود ملحظ مهم في هذا الجانب، فإن هذه القبائل التى تحالف معها المنصور كانت تضع نفسها تحت تصرفه في حروبه الخارجية، بل إننا لنعتقد أن هذه القبائل بالنسبة للحماديين منذ عهد الناصر ، قد بدأت تلعب الدور الأساسى في الحماية الخارجية للدولة تحت راية القيادة الحمادية، ونحن لانستبعد أن تكون هذه القبائل التى كانت قد ارتبطت بالدولة الحمادية ارتباطا مصيريا - كما ذكرنا - قد كانت تقوم ببعض الأعمال في الداخل للمشاركة في حفظ الأمن وجمع الضرائب وغيرها.

وبإيجاز: فقد نجحت سياسة الناصر التى تبنّاها بنو حماد بصفة عامة في ترويض القبائل العربية- والإفادة منها، وتحويلها إلى عناصر بناءة - بدلا من أن تظل عناصر تخريب.

وكانت هذه السياسة ناجحة النجاح كله، لدرجة أنه عندما سقطت دولة بني حماد على يد عبد المؤمن بن على الموحدى سنة ٥٤٧هـ - كانت هذه القبائل الهلالية العربية أكثر القبائل وفاءً للدولة وأكثرها دفاعا عنها، وقد ظلت تقاوم الموحدين - وفاءً لبنى حماد - حتى بعد أن استسلم بنو حماد، وخضعوا للموحدين....

وليس ذلك الوفاء غريباً في الطبيعة العربية، ولا تلك النخوة مستورده ومجلوبة.. بل هذه الأصالة العربية في وضعها الفطرى.

وليس بنو هلال إلا جزءاً من تلك الطبيعة وتلك الفطرة العربية، مهما نأت بهم الأوطان، وتقلبت بهم ظروف الاغتراب !!!.

* * *

وجدير بالذكر أن سياسة الترويض والمعايشة التى وضعها الحماديون أساساً لعلاقتهم ببنى هلال والقبائل العربية - قد صارت سياسة ثابته في المغرب العربى، سار على دربها الموحدون... فخمدت بالتالى وإلى الأبد - على المسرح المغربى، شوكة هذه القبائل... وامتزجت العروبة بالبربرية... فعربتها... وحملت معها عبء التحضير والجهاد والبناء.... وأصبحت جزءاً من كيان المغرب العربى لا تنفصل عنه، حتى وإن ظلت تُغَنِّى للوطن الأم ملحمة التغربة الرائعة.

الفصل السادس

الهلاليون والمكونات الثقافية
للمغرب الإسلامى العربى

الهلاليون والمكونات الثقافية للمغرب العربى الإسلامى

من البديهى أن العنصر البربرى بكل خلفيته الثقافية - يمثل واحداً من أبرز المكونات الثقافية للمغرب العربى الإسلامى التى واجهها الهلاليون. على أنه لايمكن - مع وجود هذا العنصر - إهمال المكونات الثقافية العربية التى استقرت على امتداد المغرب منذ الفتح الاسلامى - ولاسيما تأثير الدولتين الكبيرتين: بنى رستم في تيهارت، والفاطميين في المهدية.(١) وهذا لايعني إهمال شأن الجهد الذى بذله البربر أنفسهم في تعلم العربية وعلوم الإسلام حتى إننا لنجد القرن الرابع الهجرى لم يكد يبزغ حتى صار كثير من(البرابرة) يزاحمون العرب في علوم لغة(الضاد) وأصبح علماء البربر يناظرون فقهاء العرب في القواعد الأصولية والفروع الفقهية وقضايا علم الكلام!!

لقد استطاع الطابع العربى - أن يغلب على الثقافة منذ مطلع القرن الرابع الهجرى وقد ساعد على ذلك أن الثقافة العربية جزء من الإسلام الذى هو عقيدة الامة. وأن تاريخ الأُمة منذ ثلاثة قرون هو تاريخ هذه الثقافة، وأن المغرب العربى محاط من كل أطرافه بثقافات عربية سواء من ناحية الشمال حيث(الأندلس الإسلامية) أو من الشرق.. حيث منابع الثقافة الإسلامية... مما يجعلنا نطمئن إلى القول بأن الثقافة العربية الإسلامية قد نجحت في أن تكون الثقافة(الأم) والأولى منذ القرن الرابع

(١) انظر كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى ص ٧٨،٦٩، والمغرب العربى لرابح بونار ص ٢١٦

المهجرى، ونجحت في أن تكون مناط عناية الدول البربرية على اختلاف منازعها واتجاهاتها السياسية الرسمية.

ولقد حظيت العربية باحترام البربر أيّما احترام على وجه العموم - وقد اعتبروها لسان الأدب ولغة العلم وعنوان الثقافة - فانبلج - بالتالى - في القرنين الخامس والسادس الهجريين (عصر جديد أصبحت فيه اللغة العربية... ربّة المنزل، وصاحبة الأمر والنهى على القرائح والعقول) (١) وعند منتصف القرن الخامس الهجرى حدث ما هو معروف من زحف القبائل العربية على المغرب العربى... وعلى رأسها بنو هلال. ومهما يكن من الأثار السلبية التى خلفتها هذه القبائل في الحياة السياسية والاقتصادية والعمرانية(بخاصة) في المغرب العربى... فقد أثرت لغة التخاطب لقبائل بنى هلال وبنى سليم في اللسان البربرى الذى كان طاغيا على اللسان العربى في الأرياف... وفي المدن أيضا... وسارت عملية الاستعراب تبعاً لعملية المزج والاحتكاك في الحياة العملية اليومية وقد برز بهذا المظهر الحضارى دور جديد في الآداب المغربية يسميه أحد المؤرخين المعاصرين((بالدور المدرسىّ)) وهو دور تم وضع حجره الأساسى في القرن الخامس المجرى، وقد ظل هذا الاتجاه يختمر في القرن السادس للهجرة... وهو دور يمتاز بأنه آخر الأدوار المدرسية الأخرى - التى اختمرت في الذهنية المغربية ولهذا فقد جاء((خلاصة للأدب العربىّ وزبدة للعقول))(٢)

ويبدو أنه بعد هذا الدور بدأ المغرب العربى يدخل في عداد الدول المعربة فعلا... وقد سبقت تونس إلى ذلك، ثم تبعتها الجزائر... أما المغرب الأقصى... فقد تأخر عنها تأخراً نسبياً يمثل خلافاً في الدرجة - لا في المظهر الحضارى العام.

---

(١) انظر بلاغة العرب للأستاذ عثمان الكعاك ص ٢٩.

(٢) بلاغة العرب في الجزائر ص ٢٩ وانظر كتا ب الجزائر لتوفيق المدنى ص ٧٩

ومن عناصر التكوين الثقافى التى لايمكن تجاهل تأثيرها في هذا الطور - زحف مذهب((مالك بن أنس)) بدءاً من التأثير الذى أحدثته((مدرسة القيروان)) التونسية..... ومروراً بالقسم الغربى في العالم الإسلامى كله، وهو القسم الذى انتظم الأندلس وبلدان المغرب العربى - وعبوراً إلى القارة الإفريقية... حيث لايزال مذهب مالك هو المذهب الغالب في هذه البلاد(١)

والجدير بالذكر أن احتكاك المغرب العربى بالأندلس وهجرة بعض الأندلسيين والأفارقة والصقليين وغيرهم إليه، وإسهام هؤلاء في الحركة الثقافية المغربية... بما حملوه من علوم وآداب..(٢) ثم الأثر الحضارى الهلالى.... كل هذه العناصر- وربما غيرها- قد كونت الملامح الأساسية للشخصية الثقافية المغربية... وساعدت على إبرازها في صورة حضارية خاصة ذات إطار خاص كما أنَّ هذه العناصر - في الوقت نفسه - قد ساعدت على رقى الثقافة المغربية وازدهارها بصفة عامة. وقد انتشرت في هذا العصر ظاهرة التنافس الثقافى، وكان السباق قائما بين بلدان المشرق والمغرب والأندلس وعواصمها المختلفة((المهدية وبجاية وفاس وتلسمان وسبتة، وبلرم وبغداد، والقاهرة، والمدينة المنورة، ومكة)) وغيرها. وقد برزت كل مدينة من هذه المدن بلون خاص من العلوم أو الآداب غلب عليها، واشتهرت به... فالمهدية عاصمة البحوث الكيماوية، وصقلية عاصمة الترجمة والنقل للعلوم العربية من اللاتينية، وبجاية عاصمة الرياضيات(ومن بجاية الجزائرية هذه أخذ الأوروبيون الأرقام العربية والجبر والمقابلة وهندسة أو قليدس)!

وهكذا الأمر في كل عاصمة إسلامية عربية....!!!

---

(١) الاسلام والثقافة العربية في افريقيا للدكتور حسن محمود جـ١ ص ١٦٨

(٢) المغرب العربى لرابح بونار ص ٢٨٣.

وقد ساعد على هذا التنافس وعطائه الحضارى، ما كان يلتزم به الحكام من رعاية للملتصقين بهم من العلماء والأدباء والشعراء... وعلى سبيل المثال: فإنَّ حكام المغرب الأوسط«الجزائر» خلال القرن الخامس والسادس للهجرة كانوا يرعون العلماء والشعراء و يغرونهم بالقدوم عليهم، ويجودون عليهم بالعطاء جوداً حاتمياً...وكان أبرز حكام الجزائر على الإطلاق خلال القرن الخامس الهجرى«الناصر بن علناس الحمادى» أطول الملوك باعاً في هذا المضمار، فقد كان يؤمه الأدباء، و يقصده الشعراء، فيغدق صلاته عليهم(١) وكان الأمير«المنصور بن الناصر بن علناس» الذى خلف أباه الناصر على حكم الجزائر... يكتب و يقول الشعر،(٢) و يشجع الأدباء والشعراء.

وكانت حركة الانتقال المتاحة بين العواصم الإسلامية(دون جوازات سفر أو تأشيرات)... كانت هذه الحركة التى غلب عليها طابع البعثات والرحلات العلمية ـ من أبرز العوامل في إذكاء روح النشاط الثقافى... وهى ظاهرة عامة في العالم الإسلامى كله خلال هذه العصور بدرجات متفاوتة بين شعوب وحكومات هذا العالم. ولربما كانت هذه الظاهرة أقوى في عالمى المغرب والأندلس عنها في المشرق، نظراً لشعور أبناء المشرق بأنهم المصدر والأصل الذى يجب أن تشد إليه الرحال و يسعى إليه... وأيضاً لشعور المغاربة بمكانة إخوانهم«المشارقة» ـ أهل الرسالة والرسول عليه الصلاة والسلام ـ في الحضارة الإسلامية. لقد كانت حدود الأقاليم غير ذات أهمية.. وهى لم تمثل حاجزاً أو فاصلا بين العلماء والأدباء والكتاب والشعراء(٣) بل كانت الأفكار في العالم الاسلامى متصلة كل الاتصال(٤)

---

(١) اعمال الاعلام للسان الدين بن الخطيب(الجزء الثالث) بتحقيق احمد مختار العبادى ص ٦٩ وانظر كتالوج بجاية ص ٥٨

(٢) اعمال الاعلام ٩٧/٣

(٣) انظر العربية ليوهان فك ص ١٦٨

(٤) انظر بلاغة العرب للكعاك ٣١

تعكس تقارباً ثقافياً يعتبر خصيصة كبرى من خصائص الحضارة الإسلامية في عصور الازدهار. وفي الموسوعات العلمية الكبرى لهذه القرون تأكيد واضح لبروز هذه الظاهرة ودورها الإيجابى في خلق وحدة فكرية في العالم الإسلامى كله.

«فابن بسام» يفرد القسم الرابع من موسوعته«الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة»(القسم الرابع من المجلد الأول) ـ لمن هاجر إلى الجزيرة«أى الأندلس» من الآفاق وطرأ عليها من شعراء الشام والعراق. و يشتمل هذا القسم على تراجم لهؤلاء الرحالة الشعراء في القرن الخامس الهجرى، وحتى وفاة ابن بسام سنة(٥٤٢هـ) قريبا من منتصف القرن السادس الهجرى.(والمقرى) صاحب موسوعة«نفح الطيب» يورد لنا نحواً من مائتين وخمسين ترجمة لمن رحلوا من الأندلس إلى المشرق من العلماء والأدباء والفقهاء. و يورد لنا ـ أيضا ـ قريبا من خمس وسبعين ترجمة لمن رحلوا من المشرق إلى الاندلس. وفي كتاب(الصلة) لأبى القاسم خلف بن عبد الله الشهير«بابن بشكوال» المتوفى سنة(٥٧٨هـ) نلحظ الظاهرة نفسها، فأغلبية المترجم لهم رحلوا إلى المشرق وكثير من المشارقة زاروا الأندلس وقد ألحقهم ابن بشكوال بقائمته التى أطلق عليها اسم الغرباء. وفي التكملة لابن الأبار وفي«وفيات الأعيان» لابن خلكان«وفوات الوفيات» للصفدى وفي جذوة المقتبس للحميدى ـ وفي غيرها من المصادر ـ نستطيع التأكد من هذه الظاهرة على نحو واضح!! و يذكر«ناصر خسرو» أنه رأى سنة(٤٤١هـ) ـ ١٠٤٩م ـ وهو بمصر بعثة للبحث عن الأثار الفرعونية(وجماعات من المطالبين)ـ قادته من الشام والمغرب.(١)

كما أن المشاهير كانوا يتبوأون مركزهم الثقافى على امتداد العالم الاسلامى كله... و«ناصر خسرو» يذكر لنا أن أفاضل الشام والمغرب

(١) «سفرنامة» لناصر خسرو ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ص ٦٩

والعراق ـ يقرون بأن «أبا العلاء المعرى» أديب عصرهم بلا منازع[1] وحين يورد لنا «المقرى التلمساني» حياة الأزدي الحميدى صاحب جذوة المقتبس المذكور آنفا يخيل إلينا أننا امام مواطن عالمى من نوع غريب، فقد عاش وطلب العلم في كل من الأندلس ومصر ودمشق ومكة المكرمة وواسط، وبغداد وغيرها، !![2] فنحن ـ بإيجاز شديد ـ أمام ظاهرة يمكن أن نسميها «بالوحدة الحضارية» حتى وإن كان ثمة تفكك سياسى منتشر، وهذه الوحدة الحضارية صهرت المغرب العربى في بوتقتها... ولم تلبث أن جعلت انتماءه للحضارة الإسلامية انتماء وجود وكيان ومصير.

طرق التثقيف

اعتمدت الثقافة في المغرب على الالتحام الحضارى بالقبائل العربية وبالمسلمين الفاتحين وهذه قضية بديهية — لكنها مع ذلك قد اعتمدت — خلال هذه العصور — على طرق تثقيفية محدودة لها مدارسها ومشايخها وأساليبها، ومعلوم ـ من روح المسيرة الحضارية الإسلامية العامة — أن المسجد كان يقوم بدور كبير تعليمى وتثقيفي هام بحيث إنه لم يكن ثمة مسجد في مدينةٍ خاليا من المدرسين[3]. وقد أطلق عليه في المغرب العربي اسم «المسيد» وكثيراً ماكان هذا «المسيد» عَلَماً على ملحق يلتصق بالمسجد... يُفرد للناحية التعليمية وقد تطور هذ «المسيد» في القرن الخامس الهجرى فاستقل بنفسه عن المسجد، وصار كياناً بذاته من حيث البناء والهدف.[4] ولكن هذا التطور لم يمنع المسجد من أن يكون محل تعليم إلا أنه ارتفع طبقةً فصار بمثابة دار للتعليم الثانوي أو التعليم العالى !!

---

(١) سفرنامة ص ١١

(٢) نفح الطيب للمقرى ٣١٤/٢ بتحقيق الشيخ محمد محى الدين عبد الحميد .

(٣) انظر كتاب الجزائر لتوفيق المدنى ص ٨١ وكتالوج بجاية ص ٥٨

(٤) انظر مراكز الثقافة للكعاك ٧١ ، ٧٢

وإلى جانب«المسيد» و«المسجد» وجدت«الزاوية» فقد كانت الزوايا كثيرة جداً بالمغرب العربى بين كبيرة و صغيرة. وهى عبارة عن مجموعة من المبانى الفاخرة الكثيرة يتوسطها«ضريح الشيخ»(!!!) المؤسس الذى كان عبارة عن قبة كبيرة مفروشة بالزرابى(السجاجيد) مملؤة بالمباخر والمجامر والأعلام.(١) وكانت الكتاتيب أشهر أنواع التعليم الابتدائى و يبدو أنها قريبة في تخصصها- من عمل(المسيد) وإن كانت تتميز بملكيتها الخاصة!! و يبدو أن ما عرف في بلدان المغرب العربى باسم(الشريعة) كان يقوم أحياناً مكان الكتاب، وهى خيمة مدرسية عند البدو(٢) إلى جانب كونه مصلى تقام فيه«الأعياد» وربما صلوات الجمع. ومن المحتمل أن(الشريعة) كانت محل تعليم البدو في مقابل(المسيد) الذى كان محل تعليم الحضرى. وهى تنتقل بانتقال الحىّ وفق ضرورة الانتجاع، أو دواعى تزاحم القبائل، و يتعلم فيها الأحداث من الجنسين. وفي المدن المغربية الكبرى كان يوجد لون من التعليم العالى(الجامعى) وعلى سبيل المثال فقد أنشأ الناصر بن علناس في بجاية(الجزائرية) معهد سيدى التواتى الذى يحتوى على ثلاثة الآف طالب وتدرس فيه كل المواد بما فيها العلوم الفلكية....

وخلال مؤتمر علمى ألقت(طالبة) من هذه الجامعة، محاضرة دامت ثلاثة أيام حول بروج الشمس... فقد كان مرخصا للفتيات في حدود الشريعة الإسلامية ليس بالتعليم فقط، بل بتقديم رسائل علمية عليا«أطروحات باسم الجامعة»(٣) وقد عرفت في المغرب العربى منزلة الاختصاص الأكاديمى... كما عرفت المكتبات العامة، وكان بجامع المنار الموجود بالقلعة في الجزائر مكتبة مليئة بالكتب المحمولة من أقطار المغرب، والمنقولة عن تدريس أساتذة

---

(١) المكان السابق(ونحن بالطبع ننكر هذه القبورية المبتدعة)

(٢) الإسلام في المغرب والأندلس ص ٨٩ ليفى بروفنسال(حاشية)

(٣) انظر كتالوج بجاية ص ٥٨ بإشراف الدكتور بورييه عميد كلية الآداب بالجزائر سابقا

جامعات المغرب المختلفة. وخلال حكم العزيز بن الناصر بن علناس للمغرب الأوسط كان يحاضر في جامعة سيدى التواتى هذه علماء من أسبانيا ومن إفريقيا والشرق.(٢) لقد ازدهرت الحياة العلمية في المغرب العربى ازدهاراً كبيراً تدلنا عليه هذه المكانة التى احتلتها عواصم المغرب الحضارية آن ذاك(كفاس والقيروان وتلمسان وبجاية وتونس)وغيرها وقد برز في هذه العواصم العلماء والفقهاء والشعراء والمؤرخون والأطباء والرياضيون وغيرهم من طوائف الاشتغال بفنون العلم المتعددة.

وقد اعتذر أبو العباس الغبرينى صاحب كتاب(عنوان الدراية في علماء المائة السابعة)بعد أن أورد مجموعة كبيرة من العلماء الذين عاشوا في القرن السادس... اعتذر بقوله:

«وقد بقي خلق كثير من أهل المائة السادسة ممن لهم جلال وكمال ولكن شرط الكتاب - أى التزامه بالقرن السابع الهجرى - منع من ذكرهم».

ويتابع الغبرينى شهادته فيقول:

وقد مضى من قول الشيخ أبى على المسيلى قوله: أدركت ببجاية وحدها ما ينيف على تسعين مفتياً ما منهم يعرفنى، وإذا كان المفتون في بجاية وحدها تسعين، فكم يكون فى بجاية من المحدثين ومن النحاة والأدباء وغيرهم ممن تقدم عصرهم ممن لم يدركه... لقد كان الناس على اجتهاد وكان الأمراء لأهل العلم على مايراد.(٢)

وقد أورد الغبريتى ماينيف على مائة وثلاثين ترجمة، وفي تصورنا أن هذا الثراء الفكرى الذى شهدته عاصمة الجزائر - دليل ناصع على الثراء الذى

(١) كتالوج بجاية ٦٧

(٢) عنوان الدراية للغبرينى ص ٣٢

تحقق في العواصم المغربية الأخرى كالقيروان وفاس، وبخاصة وأن بجاية لم تكن أعلا قدراً... ولا أشهر ذكراً من عواصم المغرب الأخرى.

العلوم الإسلامية

تصدر المذهب المالكى المذاهب - بل والعقائد - الموجودة في المغرب العربى على المستوى الشعبى، بل والرسمى أيضا... وبالتالى، فقد أصبح هذا المذهب مجال نشاط« الفروع» فى بلدان المغرب ،ومصدر الأحكام والتشريع فيها. وقد لقيت علوم القرآن والسنة من تفسير وحديث وقراءات وفقه اهتمام الدول المغربية وجمهرة المسلمين.

والجدير بالذكر أن المكانه التى تمتع بها المذهب المالكى في المغرب خلال هذين القرنين اللذين كان التأثير الشيعى قد اختفى فيهما بعد رحيل الفاطميين إلى مصر.. هذه المكانة قد أضفت لوناً من الثبات الفكرى والعاطفى في المغرب، وتحقق على المستوى الفكرى - نوع من الوحدة لم يتوافر لبلدان المشرق المعاصرة التى كان الصراع قائما فيها على أشده بين السنة والروافض!!.

وقد اتجهت الحياه الدينية إلى دراسة الأحاديث المجموعة في كتب الفروع وفقاً لمدرسة الحديث التى كان إمامها«مالك » إمام أهل الحديث بالمدينة، وكانت كتب المالكية الشهيرة كموطأ الإمام عبد الوهاب البغدادى، والواضحة لابن حبيب والعتبية للعتبى.(١)«والأسدية» التى جمعها أسد بن الفرات(٢) أثناء تلمذته على ابن القاسم إمام المالكية بمصر«والمدونة» أو«المختلطة» التى جمعها في فقه المالكية أبو سعيد سحنون بن سعيد، ولقيت

---

(١) مقدمة ابن خلدون (٣) ص ١٠٢٢

(٢) الحلة السيراء (٢) ص ٣٨١

من المغاربة أكبر اهتمام. كانت هذه الكتب الرائعة أهم المراجع الأصلية للفقه المالكى الذى تدور حوله سائر الاجتهادات في المغرب العربى!!.

والحق أن المغاربة لم يقفوا عند حد الاتباع «بل ظهر بينهم بإفريقيا طائفة من أعلام الفقه مجتهدون في المذهب ألّفوا فيه وأوضحوا مسائله كابن أشرس والكتامى والبرادعى وغيرهم(١)»

ومن هؤلاء من كان ينتقد مدونة سحنون. ومن الظواهر الجديرة بالذكر في هذا المقام أن هذه العلوم التى تسمى بالعلوم النقلية كانت مختلطة ممتزجة متكاملة، ولذا فقد كان التخصص نادراً فيها وكان العلماء والفقهاء على دراية وعلم بأكثرها مع وجود اشتهار عالم مّا بنوع أكثر من شهرته في الفروع الأخرى.

وبالإضافة إلى الثبات الفكرى الذى أضفاه إلى حد كبير مذهب مالك فإنّ المغاربة لم يكونوا ميالين كثيراً إلى الجدل واللجج، وبالتالى لم يحْظ علم الكلام(التوحيد) من اهتمامهم بالمكانة التى حظى بها فى الشرق أو بالمكانة التى حظى بها علم الفروع، أو علم القراءات أو التفسير. وكان جمهور مفسرى المغرب يسيرون على المأثور عن النبى(صلى الله عليه وسلم) وصحابته وفق اتجاه الإمام مالك متجنبين طريقة التأويل التى التزمها المعتزلة والشيعة.(٢)

ومن أبرز العلماء المشهورين في العلوم الإسلامية في المغرب العربى في هذين القرنين «الشيخ محرز بن خلف بن رزين التونسى» الذى يرتفع نسبه فيما يقال - إلى الخليفة الراشد أبى بكر الصديق رضى الله عنه.

---

(١) راجع ابن فرحون الديباج المذهب طبع فى مصر ص ١١٢، ١٣٦، ١٣٧، ١٥٢، ١٥٣

(٢) انظر الدولة الموحدية بالمغرب ص ١٣٦

وقد توفى محرز سنة ٤١٣هـ ودفن بداره بناحية باب السويقة في تونس(١) وكان قد بدأ حياته«معلماً للقرآن الكريم» ومؤدباً ببلدتى أريانة والمرسى، ثم انتقل إلى مدينة تونس يقرئ القرآن الكريم ويعلم الفقه من رسالة«ابن أبى زيد» ويدرس الحديث الشريف(٢).

وتبعا لما اكتسبه الشيخ محرز بن خلف من سمعة طيبة وتقدير واسع، وما أحرزه من شهرة كبيرة لقب بسلطان المدينة، وكان مقصد الناس في الفتيا وفى حل مشكلاتهم عند أولى الأمر بل إنه كان من أبرز قادة الثورة على الشيعة في عهد الأمير المعز بن باديس!!.

ومن المشهورين أيضا مروان بن على الأسدى المعروف بالبونى(نسبة إلى مدينة بونة الجزائرية) الذى عرف بالصلاح والتقوى والعفاف،وله كتاب في شرح الموطأ، كما عرفت له جهود في علوم الحديث، ومات في حدود سنة ٤٤٠هـ(٣) ومن هؤلاء العلماء عبد الحميد الصائغ المتوفى سنة ٣٨٦هـ جنوب سوسة.

وقد ولد بالقيروان ونشأ بها وتلقى مختلف العلوم حتى صار عالما نبيلاً وأصوليا محققا وفقيها جيد الفقه، تقلد خطّة الإفتاء بالمهدية(عاصمة بنى زيرى الشهيرة) إلى أن استقلت سوسة فوقع القبض عليه مع جماعة منها وعوقب بالضرب وغرامة قدرها خمسمائة دينار دفعها من ثمن بيع كتبه(٤).

ومن علماء العصر كذلك«محمد بن على بن عمر» الشهير باسم الأمام المازرى المتوفى سنة ٥٣٦هـ وقد ملأ وطابه من مختلف العلوم حتى أصبح فقيها ومحدثاً وراويا وطبيبا ومجتهداً. وصار يفزع إليه في الطب. كما يفزع

---

(١) انظر الدولة الصنهاجية لأحمد بن عامر ص ٨٧ ط الدار التونسية للنشر ١٩٧٢

(٢) المرجع السابق ص ٨٨

(٣) انظر ترتيب المدارك القاضى عياض (٣) ص ٧١٩ وجذوة المقتبس ترجمة رقم ٨٩٨ وبغية الملتمس للضبى تصوير مكتبة المثنى ص ٤٤٦

(٤) انظر أحمد بن عامر الدولة الصنهاجية ص ٨٦

إليه في الفقه، واشتهر بمؤلفاته العديدة[1] المذكورة في كتب الفهارس والتى لم يصلنا شئ منها.

ومن علماء العصر البارزين(موسى بن حماد الصنهاجى) الذى كان فقيها حافظاً من جلة القضاة وكان راوية لأبى الفضل يوسف بن محمد المعروف بابن النحوى وغيره وقد توفى سن ٥٣٥هـ بمراكش[2]

ومن هؤلاء الفقهاء إبراهيم بن حماد، وموسى بن حماد بن أبى بكر الأشيرى، وحجاج بن يوسف الهوارى، من ناحية بجاية(توفى سنة ٤٧٢هـ)وأبوبكر بن عتيق من أهل القلعة(توفى سنة ٥٥٣هـ)، وعبد الله بن محمد بن عيسى من مدينة تاهرت عاصمة دولة بنى رستم، وأحمد بن خصيب الأنصارى المتوفى في حدود سنة (٤٥٠هـ) ويوسف بن محمد بن يوسف أبو الفضل النحوى الذى كان بمثابة مدرسة لها اتجاهها في فقه الدين، وكان اتجاهه امتداداً للإمام أبى حامد الغزالى - ومنهم أيضاً محمد بن على بن جعفر المعروف بابن الرمانة - تلميذ ابن النحوى السابق الذكر، وصاحب كتاب تسهيل المطلب في تحصيل المذهب، وكتاب التقصّى عن فوائد التقصّى، وكتاب التبيين في شرح التلقين وغيرها[3].

ويعتبر أبو القاسم يوسف البكرى المولود ببسكرة سنة ٤٠٣هـ من أبرز علماء القراءات في المغرب كله، وقد قال عنه إمام القراء ابن الجزرى: لاأعلم أحداً في هذه الأمة رحل في القراءات رحلته، ولالقى من لقى من الشيوخ» وقد ترك آثاراً كثيرة نعرف منها كتاب الكامل في القراءات وكتابى الوجيز والهادى.

---

(١) المرجع السابق ص ٨٧

(٢) ابن بشكوال الصلة (٢) ص ٦١٤

(٣) راجع حول هؤلاء نفح الطيب والصلة والتكملة والبستان لابن أبى مريم وغيرها

وكما كان البكرى إماما في القراءات كان أبو محمد عبد الله الأشيرى المتوفى سنة(٥٦١هـ) اماماً مبرزاً في الحديث يتسابق الناس إلى الأخذ عنه والتشرف بالانتساب اليه وقد خدم دولة الموحدين، ومن أشهر كتبه تهذيب الاشتقاق لأبى العباس المبرد(٢)

ونحن لانشك في أن هناك كثيرين انتشروا على أرض المغرب الفسيح وفي عواصمه الحضارية الكبرى من طرابلس إلى طنجة يخدمون علوم الدين ويرفعون لواءها علما وعقيدة ووظيفة ورسالة.

بيد أننا نجد أنفسنا مضطرين إلى القول بأن كثيرا من هؤلاء كانوا مقلّين في إنتاجهم الفكرى المدون يعتمدون على تكوين التلاميذ والتعليم الشفهى، ويكتفى كثير منهم بالرواية عن غيره، ولعل هذا هو الذى جعل من الصعوبة بمكان تتبع أكثر نشاطهم ولا سيما انتاجهم الفكرى.

لقد كانوا فيما نعتقد يعطون الكلمة المكتوبة خطورة كبيرة وبالتالى كانوا يتحفظون كثيراً قبل إقدامهم عليها، ولعل أكبر أسباب هذاالسلوك أنهم كانوا يشعرون بأنّه بحسبهم من الفخر أن يكونوا أتباعا وتلامذة لعلماء المشرق مهد الدين ومنبع حضارة الإسلام..

الآداب وعلوم اللغة:

كان لفروع الأدب من نثر وشعر وما يندرج تحتها، ولعلوم اللغة مكانة هامة في المغرب العربى خلال هذين القرنين.

وكان الأدب مناط عناية واحترام طبقات المجتمع كلها.... الملوك

(٢) انظر المغرب العربى - رابح بونار ٢٧٢، ٢٦٨

والوزراء ورجال الدولة والعلماء والطبقات الأخرى... كل هؤلاء كان الأدب ركناً قوياً من أركان ثقافتهم.

وكانت العربية الفصحى المصقلة بلسان العرب النازحين وبلسان قبائل بني هلال وبني سليم لغة الثقافة والفكر وإن كان من الضروري أن نتوقع أن تكون اللهجة الإقليمية قد أكسبتها لوناً محليا ذا طابع خاص(١) أما البربرية فإنها لم تمت موتاً كاملاً خلال هذا العصر، بل بقيت إلى حدٍّ ما معروفةً متداولة، ويبدو أن جزءاً كبيراً منها كان يسيطر على لغة قصور الحكم التي لم ينس أصحابها بعد أنهم برابرة يحكمون شعوباً وبلادا بربرية الأصل، ولكن ـ مع ذلك ـ نجحت العربية في أن تكون اللغة الحية القوية السهلة المطواعة للتعبير عن الفكر العلمي، وفرضت نفسها بحيث أصبحت لغة السياسة والتخاطب الأدبي(٢).

ويقف في قمة أدباء هذا العصر «ابراهيم بن على الحصرى» المتوفى بالقيروان في سن الثمانين سنة٤٥٣هـ.

وقد نشأ وتعلم بالقيروان حتى نبغ في الأدب وفنون اللسان، وصار أديبا فذاً يجتمع الشبان بناديه ويتتلمذون عليه ويأخذون عنه. وقد ترك مؤلفات عديدة أشهرها:

١ ـ ديوان شعره .
٢ ـ زهر الآداب .
٣ ـ المصون في سرّ الهوى المكنون.
٤ ـ جمع الجواهر في الملح والنوادر(٣).

---

(١) انظر العربية ليوهان فك ص ١٦٧

(٢) فيليب حتى تاريخ العرب مطول ج ٢ ص ٣٩٢

(٣) انظر أحمد بن عامر الدولة الصنهاجية ٨١ ـ ٨٢

أما(الحسن بن رشيق) فيعتبره بعض مؤرخى الآداب بالمغرب أشهر وأشعر شعراء هذا العصر. وقد ولد بمدينة المسيلة بالمغرب الأوسط(الجزائر) حيث نشأ وتلقى ثقافته الأولى، ثم انتقل إلى القيروان حيث أتم ثقافته العالية ، وأشبع نهمه من مناهلها الأدبية.

وقد جلب الأنظار اليه، وقرّبه الأمير المعزّ بن باديس وألحقه بديوانه فاكتسب عنده المكانه الأولى إلى أن زحف الأعراب على القيروان فدمروها سنة ٤٤١ هـ فارتحل إلى صقلية حيث توفى سنة(٤٥٣هـ)ومن مؤلفاته التى يعدها المغاربة ثروة عظيمة في مجالات اللغة والنقد والأدب:

١ ــ الأنموذج
٢ ــ الشذوذ
٣ ــ العمدة
٤ ــ أنموذج الزمان في شعراء القيروان
٥ ــ قراضة الذهب في نقد أشعار العرب (٢)

ومن أدباء المغرب المشهورين في هذا العصر أيضاً(أبوالقاسم عبد الرحمن الكاتب المعروف بابن القالمى)ـ نسبة إلى مدينة قالم(وقد أورد له العماد الأصفهانى في كتاب خريدة القصرـ رسالة طويلة (٣) ويرجّح الاستاذ(بونار) أن ابن القالمى هذا كان حياً في النصف الأول من القرن السادس الهجرى، وأنه خدم الحماديين والموحدين، وهو ترجيح نوافقه عليه، لأن ابن القالمى كان من أبرز كتاب عبد المؤمن بن على الموحدى المؤسس السياسى للدولة الموحدية.

ومن شعراءالعصر المبرزين أبوحفص عمر بن فلفول الذى كانت له اليد الطولى في الإنشاء الدال على إبداعه، وقد أورد له العماد الأصفهانى شعراً كثيرا. ويعتبر يوسف الورجلانى المولود بورقلة من بلاد المغرب الأوسط

---

(١) انظر المرجع السابق ٨٢ وما بعدها
(٢) انظر الخريدة ١٨١/١

ـ سنة (٥٠٠هـ)واحداً من أبرز أعلام هذا العهد، وقد أخذ العلم عن شيوخ بلدته ورقله. ثم ارتحل إلى الأندلس والمشرق وأخذ عن أعلامها، ثم عاد إلى ورقلة واعتكف نحو سبعة أعوام يكتب بمنزله، وقد لقب«بالجاحظ» لكثرة كتبه، وقد ترك كتباً جليلة أهمها فتوح المغرب، وتفسير القرآن في نحو سبعة أجزاء، والعدل والإنصاف في أصول الفقه، والعقيدة الحجازية في نحو خمسين وثلاثمائة بيت، وكتاب مروج الذهب في الفلسفة، وكتاب الدليل لأهل العقول الذى يشبه دائرة معارف صغيرة. وقد طبع هذا الكتاب الأخير سنة ١٣٠٦هـ (١).

وينضم إلى شعراء المغرب المبرزين في هذا العصر أيضا محمد بن شرف المولود بالقيروان سنة ٣٩٠هـ والمتوفى باشبيلية سنة ٤٩٠هـ وقد ترك عدة مؤلفات قيمة منها أعلام الكلام«وهو مجموعة طرائف أدبية، ووسائل الانتقاد» وهو أحاديث مختلفة الألوان...و«أبكار الأفكار» ويحتوى على إنتاجه شعراً ونثراً (٢).

ولعله ليس من باب المبالغة أن نقول: إن الشاعر الكبير«ابن حمديس الصقلى» هو إمام شعراء هذا العصر، في رأينا ـ ورأى أكثر مؤرخى الأدب من المغاربة والمشارقة على السواء.

وقد ولد (عبد الجبار بن حمديس) في مدينة سرقوسة الصقلية سنة ٤٤٧هـ وبهذه المدينة نشأ وتعلم واكتسب ثقافته الأدبية الأولى في عهد الحكومة الكلبية الذى بلغت فيه صقلية أوج مجدها ثم ارتحل مفارقاً وطنه نتيجة احتلال النورمان لمدينة«بالرم» الصقلية الكبرى، فاتجه إلى الأندلس سنة ٤٧١هـ ماراً بتونس والجزائر والمغرب الأقصى، واتصل حبله بعد وصوله إلى إشبيلية«بالمعتمد بن عباد» فعاش في كنفه عيشة رغد، حتى دارت الأيام

---

(١) الدكتور ابراهيم العدوى المجتمع المغربى ٣٠٥

(٢) الدولة الصنهاجية ٨٥

دورتها بالمعتمد بن عباد على يد زعيم المرابطين «يوسف بن تاشفين» الذى زحزح المعتمد عن ملكه، ووحّد الأندلس تحت راية المرابطين، وأنقذها من النصارى، وأذاق المعتمد وأمثاله من ملوك الطوائف مرّ العيش جزاء عبثهم ولهوهم وعدم تقديرهم للمسئولية التاريخية في وجه النصارى المتربصين الزاحفين...

عند ذلك وبعد أن فقد ابن حمديس صديقه المعتمد - غادر الأندلس مرتحلا إلى البلاد التونسية حيث قضى بها مدة، ثم انتقل الى بجاية العاصمة الكبرى للجزائر إذْ ذاك، فقضى بقية حياته فاقد البصر يتوكأ على عصا لاتفارقه إلى أن توفى سنة (٥٢٧هـ) عن سن تبلغ الثمانين سنة (١).

. . . .

وفي الدراسات اللغوية نبغ في هذه الفترة (الحسن بن على التيهارتى) المتوفى سنة (٥٠١هـ) (والجزولى) الذى كان أستاذا لابن معطى الذى أشاد بسبقه ابن مالك «صاحب الألفيه) حين قال عنه:

هو بسَبْقٍ حَائِز تَفْضِيلاً   مُستوجبٌ ثَنَائي الجميلا

ومن اللغويين المعروفين كذلك «عمارة بن يحى» من مدينة بجاية بالجزائ ولا شك لدينا في وجود كثيرين غير هؤلاء، لم يتح للتاريخ أن يكتب عنهم وأنهم لكثرة رحلاتهم طلبا للعلم في المشرق أو الأندلس قد اندثرت معالمهم في بلاد الغربة..

وعلى الرغم من أننا آثرنا ألا نقدم نماذج نثرية أو شعرية لمن ذكرناهم، لأن هذا قد يخرج بنا عن جوهر الموضوع، مضافاً إلى ذلك أن الكتب التى تحدثت عن هذا العصر كنفح الطيب للمقرى، وعنوان الدراية للغبرينى،

---

(١) انظر الدولة الصنهاجية - بتصرف - ص ٩٥ وما بعدها - وينظر ابن حمديس الصقلى رسالة ماجستير بدار العلوم للدكتور سعد شلبى

وخريدة القصر للعماد الأصفهانى، والبستان لابن مريم - موجودة مطبوعة تغنينا عن الاستطراد إلى ذكر هذه النماذج...

على الرغم من هذا فإننا نستطيع القول - من واقع مطالعتنا لنماذج من هذا الأدب - إن أدب المغرب في هذا العصر أدب تقليدى يلتزم السجع في النثر والديباجة التقليدية في الشعر، من رصانة لفظية، إلى محسنات بديعية إلى موضوعات تكاد تكون هى نفسها المعروفة في المشرق، ويغلب على أكثرها المدح في الشعر والكتابة الديوانية في النثر .

لقد كان المغاربة في هذ العصر كما ذكرنا من قبل - يعيشون مرحلة التقليد والاتباع وليس الابتكار والابتداع .

العلوم الاجتماعية والتجريبية

على الرغم من أن القرنين الخامس والسادس للهجرة حفلا بكثير من العلماء الرحالة والجغرافيين الاندلسيين والمغاربة - إلا أن تركيز المغاربة الأول كان يتجه إلى علوم الدين واللغة، بالإضافة إلى أن الظروف السياسية المتقلبة لم تتح الإبداع المناسب في مجال العلوم الاجتماعية والتجريبية .

وأغلب الظن أن كثرة رحالة وجغرافيي هذا العصر قد مروا بالمغرب، وعاشوا فيه لأن كتابة أكثرهم عنه - كالبكرى والإدريسى - كانت كتابة تجريب ومعاينة وليس مجرد أخبار ونقول.

ولربما كانت دراسة التاريخ - ولا سيما التاريخ البربرى - عملا أحسَّ البربر بحرج منه ازاء إقبالهم على الحضارة الجديدة التى أحبوها... وأحبوا عقيدتها ولغتها وتراثها وتاريخها.... واستغنوا بذلك عن تاريخهم الهابط كما استغنوا من قبل عن لغتهم البربرية، وعن دينهم الوثنيّ.

أما الفلسفة فلم أجد فيما رجعت إليه من مصادر أثراً ذا قيمة لها ـ وتفسير ذلك فيما أرى بغض البربر للنواحى العقلية الجدلية كردٍّ فعل للتطرف الجدلى الذى عانوا منه الكثير طيلةَ خضوعهم للشيعة الفاطميين، كما أن مذهب مالك بن أنس ـ رضى الله عنه ـ هو المذهب الذى ساد المغرب العربى ـ يعتمد على المأثور بالدرجة الأولى، وقلما يلجأ إلى المعقول إلا في غياب المنقول الصحيح حسب اجتهاده، وبالتالى كان لمنهجه هذا تأثير في البعد عن الفلسفة.....

ومع ذلك فقد وصلتنا أسماء بعض الأعلام الذين اهتموا بالتاريخ كأبى محمد القلعى الذى كان يدرس بالجامع في حاضرة بجاية بالمغرب الاوسط، ومحمد بن ميمون[1] و يوسف الورجلانى المولود سنة(٥٠٠هـ)وصاحب كتاب فتوح المغرب [2] ويحكى«ابن الأبار»أن العزيز بالله بن المنصور بن علناس الصنهاجى ـ الذى حكم المغرب الأوسط على مشارف القرن السادس الهجرى ـ قد ألف له حماد بن إبراهيم بن أبى يوسف المخزومى كتاباً في التاريخ[3] ومن المؤرخين المشهورين أيضا«أبوعبد الله محمد بن على الصنهاجى» مؤلف كتاب«النبذ المحتاجة في أخبار صنهاجة» الذى يشمل أكبر كتاب في التاريخ الصنهاجى، وله أيضا كتاب أخبار ملوك بنى عبيد وكتاب الإعلام بفوائد الأحكام [4].

أما العلوم التجريبية فقد حظيت بقسط من الاهتمام في المغرب العربى خلال هذين القرنين. ومن الملحوظ أن أصحاب هذه العلوم لم يكونوا منفصلين انفصالا تاما عن العلوم الدينية والأدبية واللغوية. على الرغم من وجود ظاهرة التخصص في هذا العصر. ولهذا فنحن نجد كثيرا من أقطاب

---

(١) عثمان الكعاك : بلاغة العرب ٢٨

(٢) د. ابراهيم العدوى : المجتمع المغربى ٣٠٥

(٣) انظر التكملة لابن الأبار ١٢٧/١

(٤) انظر أعمال الأعلام ٩٤/٣ ،٩٥(حاشية) وانظر المكتبة لأمارى ٣١٧

هذه العلوم يشتهرون إلى جانب شهرتهم في هذه العلوم بالبروز في نواحٍ أخرى كثيرة كالشعر والفقه وما إلى ذلك.

وقد عرف في هذا العصر كثير من المهتمين بهذه الدراسات كابن أبى المليح الطيب الذى كان طبيبا ماهرا (١) وابن النباهي البجائي المتوفى في أواخر القرن الخامس الذى كان طبيباً مواظبا على علاج المرضى ملماً بالعلوم الطبيعية، ومشاركا في سائر العلوم الفلسفية(٢)، وعمر بن البيدوخ أبو جعفر القلعى الذى كان خبيراً في الأدوية المركبة والمفردة وعارفاً بالأمراض وعلاجها. وقد ترك بعض الكتب مثل«حواش على كتاب القانون لابن سينا» وشرح الفصول«لأبوقراط» في«أرجوزة» وذخيرة الألباب في الباءة، وكان القلعى من مواليد القلعة لكنه طوف في الآفاق، ومات بدمشق سنة(٥٧٥هـ)(٣) ومن هؤلاء البارزين محمد بن أبى بكر المنصور القلعى الذى نبغ في الطب والرياضيات والحساب وعلم الفرائض...

ومما لاشك فيه أن حركة البناء والتعمير التى انتشرت في عواصم المغرب العربى قد احتاجت إلى كثير من المهندسين ويعتبر الإبداع الهندسى في فاس والقيروان وبجاية وتلمسان خير شاهد على تقدم المغاربة في فن الهندسة المعمارية .

وقد اشتهر في علم الفلك(على بن أبى الرجال التاهرتى) المتوفى سنة(٤٣٢هـ).

وقد عرف ابن أبى الرجال بآثاره العلمية الكثيرة، لاسيما كتاب البارع في أحكام النجوم الذى نقل إلى الأسبانية واللاتينية وكتاب أرجوزة في

---

(١) الخريدة (١٨٤)

(٢) المغرب العربى لرابح بونار ٢٧٧

(٣) المرجع السابق ٢٨٠

الأحكام الفلكية (1). والشئ الذى نميل إليه أن هناك كثيرين غير هؤلاء اهتموا بهذه الدراسات الاجتماعية والتجريبية. وإن يد الإهمال والنسيان وإيثار العلوم العربية والإسلامية والغربة والرحلة والقلق الذى كان من مميزات العصر.

هذه العوامل وغيرها قد طمست كثيراً من جهود المغاربة في العلوم الاجتماعية والتجريبية.

* * * *

وبقى أن نقول :

لئن كان القرنان الخامس والسادس للهجرة قد مثّلا دور التكوين الحقيق للحضارة العربية في المغرب... ومثّلا بالتالى البداية الحقيقية لتعريب المغرب... ثقافة وفكراً وعطاءً... فإن الفضل في كثير من ذلك لبنى هلال وبقية القبائل العربية !!!

ولئن كان الأمر كذلك فإن القرون التى تلت على امتداد الموحدين وبنى مرين وبنى عبد الواد(الزيانيين) والحفصيين قد مثلت دور الازدهار والقوة والأصالة في ثقافة المغرب العربى، الجناح الثانى للإسلام وللحضارة الإسلامية... وقد استطاع المغرب خلال هذه القرون أن يمتصّ حضارة الأندلس التى وجدت في أرض المغرب حصنها وملجأها بعد أن تكالب عليها النصارى الأسبان... وكل هذا الازدهار الحضارى يرجع في أجزاء كبيرة منه إلى تلك القبائل العربية المستوطنة التى تقف بنو هلال على رأسها، والتى قد غيرت وجهة الحضارة المغربية في التاريخ.

---

(1) مجلة الإصالة عدد يناير ١٩٧٢ مقال لرابح بونار

الفصل السابع

قصة بنى هلال فى الأدب



«قصة بنى هلال فى عالم الأدب»

طبعت هذه القصة في بيروت من سنة ١٨٨٠- ١٨٨٣م، وفي مصر سنة ١٢٩٨هـ تحت اسم«الزيارة البهية وما جرى للأمير ابن زيد والعرب الهلالية»، وأيضا على البلاطة في القاهرة تحت عنوان«السبع تخوت وسلطنة دياب وأبي زيد وتملك الأربعة عشرخليفة من بعد قتله الزناتى خليفة وهى أحسن سيرة لبنى هلال» انتهى العنوان، وهذه القصة من أحسن المصنفات لوقوف القارئ على لغة العامة، وفيها جملة قصص تحت عنوانات مختلفة منها قصة الألفاظ الحسان فيما جرى لأبى زيد الهلالى مع مشرف العربان - تأليف نجد بن هشام طبعت على البلاطة في القاهرة ١٢٩٦م ومنها أيضا الدورة المنفية في حرب دياب وقتل الزناتى خليفة وسجن دياب بالتمام والكمال(طبع بالقاهرة.١٣٣٣هـ)[١]

الإطار الأساسىّ لقصة بنى هلال فى الأدب.

ومهما يكن من اختلافات التناول وأساليب الإبداع الفنى لملحمة بنى هلال فإن هناك إطاراً أساسياً شائعا ينتظم سائر طرق التناول وقد قسم الدكتور فؤاد حسنين على [٢] هذا الإطار العام إلى ثلاث حلقات...

---

(١) اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ادوارد فنديك مطبعة الهلال بمصر ١٨٩٦هـ ص ٢٨٩

(٢) انظر كتاب« قصصنا الشعبى»نشر دار الفكر العربى القاهرة ١٧٤٧ ص ٦٢ وما بعدها

الحلقة الأولى

وهى التى تعالج بنى هلال منذ ظهورهم في الجزيرة حتى استيطانهم بلاد السرو.

الحلقة الثانية:

تحدثنا عنهم وقد رحلوا إلى نجد،

بينما الثالثة:

ويطلق عليها تغريبة بنى هلال اهتمت بحروبهم وأعمالهم في الغرب.

أما الحلقة الأولى:

فتبدأ بالحديث عن بنى هلال ونسبهم وذريتهم فهى تقول: إن هلال بن عامر وفد على النبي صلى الله عليه وسلم ومعه قومه وأسدى إلى المسلمين معاونة كبيرة قوية حتى إن النبي أسكنه وادى العياس، وقد اشتهر هلال هذا بالشجاعة والكرم، ورزق بولد دعاه المنذر، ولم يكد المنذر هذا يبلغ مبلغ الرجال حتى ترك والده، واحترف الفروسية وقام بكثير من أعمال السلب والنهب ثم تعرف إلى الأمير(مهذب) وتزوج بابنته(هذبا) ومضت على زواجها عشرة أعوام، ولم يرزق منها بطفل، فقرر الزواج بأخرى ورحل إلى بلاد(السرو وعبادة) حيث تزوج بابنة الملك الصالح واسمها(عذبا)، وبعد ذلك نرى السيرة تحدثنا أن(هذبا) وضعت له(جابرا) كما وضعت(عذبا) جبيرا ولم يمض

على ولادة الطفلين زمن طويل حتى نرى الغيرة تدب بين الاثنين ونرى كلا منهما تريد المنذر لها ولابنها، وهنا تعرض لنا السيرة هذه الناحية من نواحي الحياة الشرقية الاجتماعية عرضا جميلا، وينتهي الامر بطلاق(عذبا) ورحيلها مع ابنها(جبير) إلى نجد، ومن نسل جابر وجبير انحدرت إلينا رجالات بنى هلال ونساؤهم الذين قاموا بالأدوار الهامة من مختلف فصول السيرة، فجابر ولد له عامر وتامر وهشام وحازم، ومن نسل هؤلاء انحدر(رزق) والد أبي زيد، وسرحان والد السلطان حسن، أما جبير فقد ولد له رباح وحنظل والنعمان، ومن ذرية رباح دياب، فمن جدول النسب هذا يتبين لنا أن أبا زيد من نسل جابر بينما دياب من ذرية جبير. وبعد قصة جابر وجبير نقرأ خبر زواج(رزق) بخضراء وكيف أنه رزق منها بفتاة تدعى(شيحا) وفتى يدعى(بركات)، وكان الولد أسود اللون لذلك اتهمت خضراء في عرضها وانتهى الأمر إلى رحيلها وابنها إلى بلاد الأمير الزحلان عدو بني هلال. فيكرم الأمير وفادتها ويعنى بها وبتربية ابنها ويوكل أمر تعليمه إلى خطيب كان يشرف على ابنيه(نعم ونعيم) ثم يحدث شئ من سوء التفاهم بين الخطيب وبركات. ويحدث أن يهاجم الهلاليون بلاد الزحلان فيتصدى لهم بركات ويأخذ والده اسيرا ويعترف له الهلاليون بشجاعته ويطلقون عليه(سلامة) ويعجب من الزحلان فيزوجه بابنته(غصن البان)، وتعلو مكانة(سلامة) في أعين الهلاليين الذين رأوا كيف أن مهابته آخذة في الزيادة لذلك اطلقوا عليه منذ ذلك الوقت اسم(أبي زيد الهلالى سلامة) وبعد أن تفرغ السيرة من سرد حروب الهلاليين مع الزحلان تنتقل إلى سرحان وتحدثنا عن خبر تعرفه بشما، ووقوعها في أسر الأفرنج ونجاتها بحيلة لطيفة. وقبل أن تنتهي الحلقة الأولى من السيرة نقرأ شيئا عن أعمال الهلاليين في اليمن والهند.

أما الحلقة الثانية:

وتبدأ برحلة السلطان حسن وأبى زيد من بلاد السرو إلى نجد حيث تعيش قبيلة زغبة وذرية جبير أعنى الأمير غانم وابنه دياب، وسبب هذه الرحلة القحط الذى حل ببلاد السرو، وفي طريقهم إلى نجد نقرأ فصلا طويلا عن حروبهم مع يهود خيبر وانتصارهم عليهم، وفي نجد يتزوج السلطان حسن(نافلة) أخت ذياب بعد أن يعده بأخته(نور بارق) أى الجازية،وفي هذه الفترة نجد وصفا للمعارك التى قامت بين الهلالية والعقيلى وحنظل والهيدبى ثم تنتهى إلى الاصطدام بين أبى زيد ودياب، ولا تنتهى هذه الحلقة إلا بعد أن تطيل في الحديث عن بطولة العرب عامة والهلالية خاصة وانتصارهم على الافرنج.

تغريبة بنى هلال أو الحلقة الثالثة:

هذه الحلقة من حلقات هذه السيرة تعنى بأعمال الهلاليين في الغرب خاصة في شمال إفريقية، وهذه الفترة من فترات التاريخ الإسلامى صحيحة لاشك فيها، (كما ذكرنا في بحثنا) كما أن بنى هلال عرفتهم الجاهلية وعاشوا في الإسلام وقاموا وحلفاؤهم بنصيب وافر في سبيل العمل على تعريب تلك البلاد جنسا وثقافة...

وكما يقول الدكتور فؤاد حسنين على ــ فإننا بينما نجد التاريخ جافا في تصوير هذه الحملة إذْ بالسيرة تعرضها علينا عرضا وافيا مستفيضا، فهى تخبرنا أنها أعدت كأحسن ما تعده حملة اليوم فنحن نقرأ خبر إرسال العيون إلى البلاد أولا لاستطلاع أخبارها ومعرفة قوتها وأحسن الطرق الموصلة إليها

وكان هؤلاء الجواسيس من خيرة أبناء الهلاليين من مرعي و يونس وأبي زيد، و يقع جميعهم في قبضة العدو ولا يفرج إلا عن أبي زيد الذى عاد وجهز الجيوش لفتح زغبة، و يؤتى بالجازية من مكة لتكون في الطليعة، ثم نقرأ قصصا كثيرة حول هذه الجيوش والتقائها بالخفاجي عامر، والملك الفضبان، والخزاعى، وشبيب البثعى، والبردويل بن راشد، وأشهرها هى قصة بنى هلال مع الماضى حاكم صعيد مصر، وما كادت تتحرك هذه الجيوش لملاقاة الزناتى خليفة حتى زودها أبو زيد بخططه الحربية الخطيرة، فهو يضلل جواسيس العدو مرة، و يستولى على عيون المياه مرة أخرى و يأتى بحيل لا تقل طرافة عن حيل قواد الحرب الحالية، وقد أطلق مرة بالمنادى ينادى العرب«كل من كان عنده ناقة والده يبعد عنها ابنها، أو فرس والده يبعد عنها ابنها، وكل من كان عنده حصان طلوق يجيبه عند فرس شايع و يلحقونا على بين الخطيرى، وتخلى العرب وكلهم يدقوا طبولهم في نزولهم على العين، فيسمع الزناتى حنين المهارى وصهيل الخيول وحس الطبول فينكسر قلبه قبل ما يجى لنا الحرب». كما أنه كثيرا ما استخدم النساء للتسرب إلى داخل البلاد والقيام بأعمال السلب والنهب لإيقاع الذعر بين الأهلين والتمهيد لدخول الجيوش.

وكان توكيل هذه المهمة يوكل عادة للجازية التى كات تقوم بها خير قيام، فاسمعها مثلا تتحايل على منصور أحد بوابى تونس وتمنيه وتغريه بمختلف المغريات وبعد حديث طويل نجد الجازية تتغلب على منصور و يفتح لها ولمن معها من نساء ورجال الباب و يتمكن الهلاليون من إطلاق سراح مرعى و يونس، ثم تدور الدائرة على الزناتى فيقتل بفضل خطة وضعتها ابنته سعدة التى شفقت بمرعى عندما كان في سجن ابيها، فهى التى أشارت على الهلالية بإرسال دياب إلى ابيها ومنازلته لأن دياب أقدر الفرسان لمنازلة خليفة. خلا الجو للعرب في تونس واستولوا على عروش الغرب السبعة وشرعوا في تقسيمها بينهم كما أخذوا في الاستعداد لغزو مراكش، وهنا نجد النزاع الذى كان قائما بين العرب في الجزيرة أعنى بين اليمنية والقيسية

ينفجر مرة أخرى في افريقية، فيمثل أبو زيد القيسية وزياد اليمنية، وقد مهدت السيرة لذلك أحسن تمهيد، فهى في جدول الأنساب الذى ساقته من قبل جعلت ديابا ينحدر من فرع تجرى في عروقه دماء حمير. فهو دياب بن غانم بن رباح بن حمير بن رباح بن جبير، فذكر(حمير) هنا لم يأت عبثا وإنما تمهيد لسائر الخصومات التى قامت بين أبى زيد من ناحية ودياب من ناحية أخرى، وهو يعلل لنا قتل دياب للسلطان حسن وأبى زيد فيما بعد.(١)

* * * *

وهذا هو الإطار الأساس الذى انتظم كل الروايات المختلفة للملحمة أو تغريبة بنى هلال، وهو الإطار الذى يشكل العنصر الثابت في القصة.

(١) انظر قصصنا الشعبى للدكتور فؤاد حسنين على - دار الفكر العربى - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٧

«بعض الروايات المختلفة لقصة بني هلال»

تعددت وسائل التناول الفنى لقصة بني هلال كما تعددت في الملاحم العالمية مثل: أو ديب والإيلياذة والأودسية وغيرهما. وقد أضفى الخيال الشعبي والعربي على قصة بني هلال الكثير من الأساطير(الميثولوجيا) بحيث يبدوا البون شاسعاً في كثير من الأجزاء بين(الواقع التاريخي) وبين(الواقع الفني). ولم يكن الخلط في الأماكن الجغرافية إلا واحداً من الفروق بين التاريخ والفن كما أن الجانب الخيالي في المغامرات والبطولات والحب والتضحية أحد هذه الفروق أيضا.. كما أن الطابع البيئي للأقاليم قد أضفى على هذه الملحمة من طبيعته بحيث بدت لصيقة ومعبرة عن كل بيئة صاغتها فنيا، فبيئة نجد غير بيئة الجزائر غير بيئة تونس.. بل إن بيئة الجنوب التونسي قد تختلف عن بيئة الغرب التونسي والأمر نفسه بالنسبة للخلاف بين الشرق الجزائري والجنوب الجزائري. وقد كان للمستشرقين إسهام في بعض الروايات بني هلال ومن هؤلاء M. Brun. Rollet A. Saliznann E.W. lane

وغيرهم. ونحن في هذا المقام نكتفي بذكر ثلاث من الروايات المختلفة المختارة لتغريبة بني هلال معتقدين أنها كافية للتعبير عن الفروق الأساسية بين وسائل التناول الفنية المختلفة والتي تتضح فيها الخصائص السابقة التي ألمعنا إليها.

التغربة في الكتب الشعبية بنجد:ـ

يذكر الأستاذ(أحمد ممو) في تلخيصه لهذه القصة ـ أنها تبدأ عندما تتوالى سنوات الجدب على أرض نجد حيث كانت نازلة قبائل بنى هلال فيقرر السلطان الحسن بن سرحان إرسال سرية إلى تونس للتعرف على أحوالها

و يقع تعيين(أبو زيد)(صهر السلطان)ومرعي(ابن السلطان) ويحيى و يونس(ولدى أخت السلطان)للقيام بهذه المهمة فينطلق أربعتهم في زى الشعراء من نجد إلى حزوة واليز ثم بلاد العمق ثم مكة بلد الشريف بن هاشم وزوجته الجازية، ثم بلاد الأعاجم ثم بلاد التركمان ثم العراق وفيها الخفاجى عامر ثم حلب الشهباء ثم دمشق الشام ثم القدس الشريف ثم عريش مصر ثم مصر العلية ثم صعيد مصر ثم تونس التى يحكمها الزناتى خليفة والد سعدى والعزيزة صغيرة. وكانت للعزيزة جارية من مضارب بنى هلال تتحدث طوال الوقت لسيدتها عن خصال ابن سيدها يونس بن الحسن بن سرحان لذلك تتدخل العزيزة عندما يقع القبض على أفراد السرية لدى والدها لكى يحبس يونس في قصرها.

و يتمكن أبو زيد من الفرار و يقتل يحيى. ثم يعود أبو زيد إلى مضارب بنى هلال لكى يتحدث عن متاعب الطريق وخيرات تونس ومصير بقية أفراد السرية. و يقرر السلطان تحرك قبائل بنى هلال في اتجاه إفريقية للأخذ بالثأر ولتخليص الاسرى. وتتحرك العشائر بقيادة فرسانها الأربعة أبو زيد والحسن بن سرحان وزيدان وذياب. وفي الطريق إلى إفريقية يمر بنو هلال بالعراق حيث الخفاجى عامر الذى يستضيفهم ثم يقع في حب الجازية و يرافقهم في مسيرتهم تاركا مملكته. وعندما يصل بنو هلال إفريقية يهم الزناتى خليفة بمصالحتهم لكن ابنته تثنيه عن عزمه ذاك.. وبعد معركة توزر(مكان بالجنوب التونسي) تتواصل المعارك متقطعة إلى أن تكون المعركة التى يتم فيها قتل الزناتى على يد ذياب الذى يعتلى عرش تونس لكنه يخجل من فعلته تلك بعد ذلك و يتنازل عن العرش للسلطان الحسن بن السرحان. وفي النهاية يتم تقسيم البلاد بين أمراء بنى هلال عن طريق أبو زيد(١)

* * *

(١) أحمد ممو : التحولات في أقاصيص بنى هلال: مجلة التراث الشعبى ٨/١١

التغربة كما وردت في الكتب الشعبية بالجزائر:

يصيب القحط كامل قبيلة بنى هلال فتقع مبادلة حسناء بنى هلال الجازية بالمؤونة والمرعى للقبيلة وبذلك يضحى أحد أمراء بنى هلال بمحبوبته ويتنازل عنها للشريف بن هاشم صاحب تونس وصاحب الأرض. وعندما يحين موعد ارتحال القبيلة(عندما تمطر مراعيها) ترسل القبيلة للجازية رسولا يعلمها بما قررته القبيلة لكى تلحق بالقوم قبل ارتحالهم. وبعد مقابلة شطرنج تخرج الجازية منها منتصرة على الشريف بن هاشم يسمح لها الشريف بالالتحاق بقومها للزيارة ثم يرافقها في سفرتها تلك ولكن الجازية ترفض العودة معه فيعود الشريف وحيدا إلى تونس لكن يلحق ببنى هلال معززا برجاله لافتكاك الجازية فيتعرض له ذياب في الطريق و يتغلب عليه وبذلك تعود الجازية نهائيا إلى القبيلة.(١)

التغربة كما وردت في الكتب الشعبية بتونس: (٢)

تخاصم خليفة وابن عمه ذياب(لأن الخليفة رفض أن يزوج ذياب من أخته الجازية) فغضب ذياب لذلك وساق نوقه ورعاته وارتحل من مكانه ثم نزل بمكان آخر عمره بإبله ورعاته.

خرج ذياب يوما إلى الصيد وكان الرعاة يرعون الإبل فبينما هم كذلك إذ أتاهم غول(وتمكن ذلك الغول من افتكاك ناقة منهم) وأصبح ذلك الغول يفتك منهم ناقة كل يوم إلى أن أضر بالإبل وأخفى الرعاة الأمر عن سيدهم(وكانت فرس ذياب لا تشرب إلا حليب النوق) فأخفوا ذلك عن

(١) المكان السابق

(٢) المكان السابق

سيدهم خوفا من غضبه وجلبوا للفرس من النوق الأخرى ولكن الفرس رفضت شرب ذلك اللبن. ثم هزلت الفرس وبدأ عليها ذلك. فلما سألهم ذياب عن أمرها حاروا في الإجابة فأمرهم بإحضار الناقة التي يحلبون منها للفرس(فارتج عليهم وخافوا انتقام سيدهم إن هم أخبروه بمصير الناقة) وطلبوا منه الأمان قبل احضار الناقة فأمنهم وأخبروه بقصة الغول الذى يخطف منهم ناقة كل يوم وكيف أن ذلك الغول قد اختطف منهم الناقة التى يحلبون منها الفرس فسألهم سيدهم عن الجهة التى يأتى منها الغول فقالوا له إن الغول يأتى من جهة الشرق ودلوه على آثاره وتبع ذياب آثار الغول إلى أن انتهى إلى قصر فيه فتاة وأمامها قصعة كسكسى وجواد مشدود محملا لحم جمل مطبوخ. وكانت هذه الفتاة في انتظار عودة الغول وسألت الفتاة ذيابا عما أتى به إلى ذلك المكان وسألها هو عما جاء بها إلى ذلك المكان فقالت له الفتاة:«هذه عادة... يجئ أهالى مدينتى كل يوم بفتاة وقصعة كسكسى وبجمل مطبوخ وفرس لعشاء الغول لكى يكف عن مهاجمة مدينتنا». فقال لها ذياب:«أنا جئت لكى أقتل هذا الغول». وسكتت الفتاة ثم جلست وجاء ذياب وجلس إلى جانبها ثم وضع رأسه على ركبتها وشرعت الفتاة تمشط له شعره إلى أن غلبه النعاس.

وبعد حين إذ بالغول راجع في عاصفة من الغبار والبرق. ولكزت الفتاة ذيابا فأيقظته. وصاح الغول«ريمة الكسرى والمسرى آش جابها في قصرى؟...» فأجابه ذياب:«ألا تعرف من أنا؟» فقال له الغول:«اليوم الحقك بمن هم هنا...» فقال له ذياب:«هيا إلى القتال.» وأجابه الغول إلى ذلك فقال له ذياب:«فلنتصارع» واشتبكا فى الصراع وضغط الغول ذيابا بين ذراعيه إلى أ جحظت عيناه، ثم سأله:«ما لعينيك قد برزتا من مكانها؟.» فأجابه ذياب:«أبحث لك عن مكان في السماء لكى ألقى بك هناك.» فلما سمع الغول منه ذلك ارتخت قبضته وأسرع ذياب إلى سيفه وضرب به الغول فشطره إلى نصفين ثم وضع القصعة أمامه وأكل مافيها من كسكسى وشرب

المسك والخمر وأردف الفتاة وراءه راجعا بها إلى أهلها. فلما أبصرها سكان مدينتها سألوها عن سبب عودتها فأخبرتهم أن ذيابا قد قتل الغول فلم يصدقوها حتى أتت بهم المكان الذى كان به الغول فلما شاهدوا الغول ميتا قال صاحب المدينة لذياب:(لك ابنتى وشارع في مدينتى».

فقال له ذياب:«لاأريد لابنتك ولا شارعاً في مدينتك ولكن أريد فقط خمسمائة ناقة محملة عشباً.» فأمر له بذلك وانطلق بها ذياب إلى أن وصل بها المكان الذى ترك به رعاته. وكان ذياب قد فكر في الرجوع إلى عشيرته.(وفي الأثناء) قالت زوجة ذياب(الجازية) لخادمها خذ معك كلب صيد واذهب إلى سيدك.(وكان ذياب قد حلف أن يقتل أول من يأتيه من العشيرة) وقالت زوجة ذياب لخادمها:«قبل أن تصل سيدك بقليل أطلق الكلب من يدك(واتركه يذهب في اتجاه سيدك)..»(فسار العبد إلى أن اقترب من المكان الذى كان به ذياب) فلما اطلق ألكلب ذهب في اتجاه سيده فلما رآه ذياب سدد إليه سهما فأخطأه وتعجب ذياب كيف يخطئ السهم هدفه وهو الذى لم يخب له من قبل سهم قط فلما اقترب من مكان السهم وجده مغروسا في جلد أفعى. ونادى ذياب على العبد وطلب منه العبد الأمان فأمنه(وخرج العبد من مكمنه) فلما وقف أمام ذياب سأله:«مال وجهك كالح ياسعد؟...» فقال له العبد:«لاأستطيع أن أخبرك ياسيدى حتى تؤمننى على نفسى». فأمنه ذياب.فقال العبد:«بم أخبرك ياسيدى؟... وكيف لايكون وجهى كالحا ونساء زناتة ترد العين فيأخذن حاجتهن من الماء النظيف ثم يعكرن الماء لكى لا تملأ منه نساء بنى هلال...هذه حالنا ياسيدى بعد ذهابك...»)فلما سمع منه ذياب ذلك التهبت حميته)وأمر بجمع النوق وحمل كل النوق عشبا. وطوال الطريق كانت كل ناقة تأكل من حمل تلك التى أمامها إلى أن وصل ذياب إلى قومه.

وكان العبد قد سبقهم لكى يخبر سيدته فجمعت هذه خدمها وأمرتهم باحتطاب القندول فجمعوا منه مائة شبكة وكوموها ثم فرشوا الحصر فوق

ذلك.(ولما وصل ذياب أجلسته زوجته فوق ذلك المكان) وأمضى ذياب الليل كله يتمرغ على ذلك الفراش فلما كان الصباح أمرت زوجة ذياب خدمها بأن ينظروا كيف أصبح القندول وكان القندول قد أصبح فتاتا. وكان خليفة الزناتى قد بلغه أن ذياب قد رجع من غيبته فجاء يسلم عليه ثم أرسل له عبدا ليقول له:«ارسلنى سيدى لأطلب منك فرسك». فقام ذياب إلى فرسه وأخذ مسمار حدوته ودقه في الجزء الحى من حافر الفرس وبذلك أصبح الفرس يعرج في مشيته ولما جاء العبد لأخذ الفرس قال له ذياب«هذه خيلى أمامك فاختر منها ما يعجبك» فلما وصل العبد إلى فرس ذياب وجدها تعرج في مشيتها فتركها واختار غيرها. ولما جاء سيده قال له:«مابالك قد جئتنى بهذه الفرسة؟».

فقال له العبد:«الفرس الأخير يعرج فى مشيته». فقال خليفة:«اعتبرنى من الآن ميتا.» ولما كان الغد تقابل خليفة وذياب في البراز فقال ذياب لخليفة:«لتضرب ضربتك». فحمل عليه خليفة وضرب ذيابا فأخطأه ثم حمل ذياب على خليفة وضربه فقتله وأصبح حاكما على النجعين(١)

* * *

وثمة روايات متعددة لتغريبة بنى هلال، لكننا نكتفى بهذه الروايات الثلاث، التى يتجلى فيها اختلاف التناول، اعتماداً على اختلاف البيئة، وعلى النزعات الإقليمية الشعبية، وعلى غيرها من العوامل التى تحرك العمل الفنى في اتجاه معين. ولعلنا قد أدركنا الفروق الكبيرة بين(التغريبة) في الواقع التاريخى والواقع الأدبى، وهى الفروق نفسها التى تفصل بين التاريخ والفن.

---

(١) المكان السابق

المصـــــــادر

المصادر والمراجع التي رجعنا إليها مباشرة

١ ـ «الأعلام» وهو معجم تراجم لأشهر الرجال والنساء عن العرب والمستعربين والمستشرقين ـ لخير الدين الزركلي. ١٣٩٧هـ ـ الجزء الثالث«ط»الثالثة ص ١٤٧.

٢ ـ «كنز الأنساب ومجمع الآداب» ـ لحمد الحقيل«ط»الثالثة عام ١٣٩٣هـ

٣ ـ «المجاز بين اليمامة والحجاز» لعبد الله بن خميس.. من منشورات دار اليمامة«ط» سنة ١٣٩٠هـ

٤ ـ «البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب» لأحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي«ط» أولى سنة ١٩٦١م ـ بعد مقدمة المحقق: للدكتور عبد المجيد عابدين إلى نهاية ص ٧٣.

٥ ـ حواشي الدكتور عبد المجيد عابدين«على البيان» ودراسات باخره.

٦ ـ «كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي.«ط» لجنة التأليف«الدجوى» بالقاهرة سنة ١٩٧٠م.

٧ ـ «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» لجمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغرى بردى«ط» أولى مكتبة دار الكتب المصرية عام ١٣٥١هـ.

٨ ـ «أبو علي الهجرى وأبحاثه فى تحديد المواضع» للشيخ حمد الجاسر«ط» أولى سنة ١٣٨٨هـ من منشورات دار اليمامة.

٩ ــ «بلاد العرب» للحسن بن عبد الله الأصفهانى.. تحقيق الشيخ حمد الجاسر وصالح العلى«ط» أولى سنة ١٣٨٨هـ.

١ ـ «قلب جزيرة العرب» لفؤاد حمزة ـ نشر مكتبة النصر الحديثة«ط» ثانية سنة ١٣٨٨هـ.

١١ ــ «زهر الأدب في معرفة أنساب ومفاخر العرب» لحمد الحقيل«ط» المدنى سنة ١٣٨٤هـ.

١٢ ــ «في سراة غامد وزهران» ـ (نصوص..مشاهدات..انطباعات) للشيخ حمد الجاسر«ط» ١٣٩١ من منشورات دار اليمامة.

١٣ ــ «بلاد غامد وزهران» لعلى بن صالح الزهرانى وهو الجزء الثانى من المعجم الجغرافى للبلاد العربية السعودية ـ الذى كلف به الشيخ حمد الجاسر عددا من إخوانه وأبنائه

١٤ ــ «تاج العروس»

١٥ ــ «نهاية الأرب في فنون الأدب» لشهاب الدين بن عبد الوهاب سنة ٦٧٧ـ ٧٣٣هـ مصورة عن طبعة دار الكتب«ط» م كرستا توماس وشركاه بالقاهرة.

١٦ ــ في شمال غرب الجزيرة[نصوص ـمشاهدات ـانطباعات] للشيخ حمد الجاسر من منشورات دار اليمامة.

١٧ ــ «جمهرة الانساب» لابن حزم ـ دار المعارف بمصر عام ١٣٨٢ تحقيق عبد السلام هارون.

١٨ ــ «الاشتقاق» لأبى بكر محمد بن الحسن بن دريد«ط» السنية المحمدية عام ١٣٧٨هـ تحقيق:عبد السلام هارون.

١٩ ــ «العقد الثمين في تاريخ البلد الامين» لتقى الدين محمد بن احمد الحسين القاسمى المكى جـ٥

٢٠ ــ «المغانم المطابة في معالم طابة» لمحب الدين أبى الطاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادى تحقيق: الشيخ حمد الجاسر«ط» أولى ١٣٨٩.

٢١ ــ «مسيرة إلى قبائل الأحواز» لجابر بن جليل المانع«ط» م حداد سنة١٩٧١م.

٢٢ ــ «صفة جزيرة العرب» للسان الدين الحسن بن احمد الهمدانى. تحقيق: محمد بن على الاكوع من منشورات دار اليمامة سنة ١٣٩١هـ.

٢٣ ــ «مسالك الممالك» لأبى اسحاق ابراهيم بن محمد الفارابى الاصطرخى الكرخى..

٢٤ ــ «تاريخ ابن خلدون» :العبر... لعبد الرحمن بن خلدون ـ منشورات الاعلمى ـ بيروت.

٢٥ ــ «أبو زيد الهلالى» ـ في جزئين صغيرين ـ لحسن جوهر وأمين العطار ومحمد احمد برانق.

٢٦ ــ ديوان الصلدى ملك الاعجام وحربه مع الملك ضرغام ملك العراق ومجئ بنى هلال لاخذ الثار طبع حجر بمصر

٢٧ ــ «من اقاصيص بنى هلال» لعبد الرحمن قفة.«ط» تونس.

٢٨ ــ «مذاهب الشعر في كلام الاعراب» لحسن حسنى بعد الوهاب ـ نشر بمجلة«افكار» ثم طبع مستقلا.

٢٩ ــ «سيرة بنى هلال» نسخة خطية تقع في ٣٣٤ ورقة بخزانة جامعة الزيتونة. لخص هذه السّيرة بولس سلامة في ديوانه«ملحمة عيد الرياض».

٣٠ ــ «الهلالية» وهو أجود بحث كتب باللغة العربية إلى الآن للدكتور عبد الحميد يونس.

٣١ ــ «الموسوعة الاسلامية» مادة: «هلال» لا تزال باللغة الانجليزية.

٣٢ ــ «مجلة العرب» جـ٦.

٣٣ ــ معجم رضا كحالة.

٣٤ ــ رياضة النفوس للمالكى بتحقيق د/حسين مؤنس.

٣٥ ــ تاريخ الدولة الفاطمية للدكتور حسن ابراهيم ط مكتبة النهضة المصرية.

٣٦ ــ أعلام الأعلام/لسان الدين بن الخطيب. الجزء الثالث، تحقيق العبادى

٣٧ ــ العرب - تاريخ موجز لفليب حتى.

٣٨ ــ خطط المقريزى (الخطط المقريزية).

٣٩ ــ المؤنس في أخبار إفريقية وتونس.

٤٠ ــ الحاكم بأمر الله للأستاذ محمد عبد الله عنان.

٤١ ــ اتعاظ الحنفا للمقريزى بتحقيق/محمد حلمى أحمد. طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر

٤٢ ــ كنز الدرر بتحقيق صلاح الدين المنجد.

٤٣ ــ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. طبع دار الكتب المصرية

٤٤ ــ الكامل لابن الاثير.

٤٥ ــ البداية والنهاية لابن الاثير.

٤٦ ــ الحميدى: جذوة المقتبس.

٤٧ ــ تاريخ التمدين الإسلامى جورجى زيدان.

٤٨ ــ بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية.

٤٩ ــ المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشى. طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

٥٠ ــ الذخيرة لابن بسام.

٥١ ــ الحلة السيراء لابن الأبار بتحقيق د/ حسين مؤنس.

٥٢ ــ نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب: للمقرى التلمسانى.

٥٣ ــ صبح الأعشى للقلقشندى.

٥٤ ــ نهاية الأرب للقلقشندى.

٥٥ ــ السلوك للمقريزى.

٥٦ ــ بنو باديس وحضارتهم(مخطوط ماجستير بدار العلوم بالقاهرة) لسيد داود.

٥٧ ــ كتاب الجزائر لتوفيق المدنى.

٥٨ ــ عنوان الدراية لأبى العباس الغبرينى طبع الجزائر

٥٩ ــ بلاغة العرب في الجزائر لعثمان الكعاك.

٦٠ ــ كتاب اكتفاء القنوع بما هو مطبوع: ادوارد قنديل/طبع الهلال بمصر ١٣١٣هـ.

٦١ ــ قصصنا الشعبي للدكتور فؤاد حسنين على نشر دار الفكر بالقاهرة ١٩٤٧م.

٦٢ ــ تحليل مشتق من:

(مادة الهلال)

(في دائرة المعارف الأدبية والمصادر التى اتّكأتْ عليها)

أول: مستشرق احتفل بهذه السيرة العلميه رينيه باسيه كتب عنها عام ١٨٨٥م فصلا اضافيا نشره بمناسبة صدور ترجمة فرنسية لاحدى القصص العربية(١).

طبعات القاهرة عن اكتفاء القنوع ص ٢٨٩.

(١) بعد ذلك بحوالى عشر سنين أى عام ١٨٩٦م قام المستشرق الألمانى(و.أ. هلوارد) بعمل فهرسة للمخطوطات العربية بمكتبة برلين فى الكتاب التاسع عشر من ص ١٥٥-٤٦٢ سرد لمخطوطات السيرة من رقم ٩١٨٨ إلى رقم ٩٣٦١ حيث بلغت ١٧٤ مخطوطاً مع وصف مستقيض لها جميعا(٢)

منهم من يقسم إلى تقسيم مكانى:
نشأتهم واستيطانهم بلاد السرو وعبادة، نقلتهم إلى نجد وما كان لهم فيها من مشاهد وأيام تغر بهم وانتصارهم على زناتة وفتوحهم للأمصار والقلاع.
(٢) بعد ذلك بعامين أى عام ١٨٩٨ قام المستشرق الألمانى مارتن هارتمان فنشر بحثا مستفيضا عنوانه سيرة بنى هلال.

طبعت ببيروت ١٨٩٢-١٨٩٧م في أجزاء صغيرة وهذه لا تكاد تختلف عن السابقة بين عامى ١٨٨٠م -١٨٨٣ ببيروت الناشر سارو ط م العمومية[عن اكتفاء القنوع] وعنوانها في الطبعتين:

رحلة بنى هلال إلى بلاد الغرب وحروبهم مع الزناتى خليفة وما جرى لهم في تلك البلاد من الحوادث اللطيفة الطريفة والحروب الهائلة المخيفة.

وطبعت في بيروت عام ١٨٩٠ على نفقة خليل الخورى موافقة لطبعة بيروت عام ١٨٩٢.

أفرد(بل) كتاباً للسيرة بعنوان الجازية.
أصدره في باريس عام ١٩٠٣ ومصدره مشافهة المغاربة فى تفسير نص السيرة الذى عثر عليه بالعربية.
مادة أبو زيد لمارين هارتمان بدائرة المعارف الإسلامية.
فهرس الكتب العربية المحفوظة بدار الكتب المصرية ج ع ص ١١ و ١٥ و ٣٦ و ٣٩ و ٤٣ و ٤٦ و ٨٣ و ٨٩ و ٩٢ و ١٠٣.
سركيس ص ١٠١٥.
تاريخ كتابتها من خلال تاريخ تأثير الأدب الغربى بالأدب العربى الشرق ص ١٣٢- ١٣٥.
في حدود القرن السادس هـ ص ١٣٣ وص ١٣٤ السابع.. ثم العكس الغربى في الغربى.
إدوارد دلين ترجم إلى الإنجليزية شعراً فقرات يسيرة من شعر السيرة
لارجوا احتفل بالمرويات القصصية والأسطورة في الصحراء الإفريقية

جوان تتبع بعض القصص المغربية وفيها سمة هلالية
محمد بن رحال عالم مغربى ترجم إلى الفرنسية ما يحفظه بنو أزناس ونشره بمجلة الجمعية الجغرافية بوهران عام ١٨٨٩ المجلد التاسع ج ٤٠
ولفرد بلنت.

مكايل من منبر جامعة اكسفورد معتمدا على بلنت.
ألف ليلة منذ بداية القرن الثامن عشر الميلادى شرع فيها الأوروبيون
مقدمة ابن خلدون ص ٤١١ وما بعدها فقرة ٤٠ وما بعدها.
دسلين.
فهرس الكتب العربية الموجودة بدار الكتب المصرية لآخر ديسمبر سنة ١٩٢٨ج ٤ ص ٤٣ ذكر أن مؤلفها نجد بن هشام أو حسن الخزرجى وربما كانا ناسخين.
ص ١٥٠ ديوان الاعجام
عن التربادور أو الشعر القروى تراث الإسلام ص ٧٠-١٠٠ وعن بنى هلال.
أدوارد دلين انجليزى.
قصصنا الشعبي للدكتور فؤاد حسنين على القاهرة ١٩٤٧م .
ديوان: مقامات الملكة شيخة الكبرى ص ١٩٣.
أبو زيد الهلالى لمحمد فهمى عبد اللطيف ١٩٤٦م القاهرة .
المستشرقون٣/٥٣٢الأدب الشعبي العربى و٢/١٦٠٠و٣/٤٠٣و٢٠٤.

توزيع
مكتبة دار العلـــوم
شارع الستين ـ الرياض

مطـــابع الفرزدق التجـــارية
☎ ٤٧٨٨٥١٠ ـ الرياض